جامعة ديالى
كلية التربية
قسم التاريخ

الحياة الاجتماعية في أوربا في العصور الوسطى الإسلامية من خلال المصادر العربية

رسالة تقدمت بها (**بهار احمد جاسم محمد السامرائي**) إلى مجلس كلية التربية في جامعة ديالى وهي جزء من متطلبات نيل درجة ماجستير تربية في التاريخ الإسلامي

بإشراف
الأستاذ المساعد الدكتور : عاصم إسماعيل كنعان العباسي

1426 هـ 2005م

الفصل الأول
مصادر معرفة العرب بأوربا

تشير المصادر التي بين أيدينا عن معلومات الجغرافيين العرب عن أوربا ، إلى حروب التحرير والفتوحات العربية الإسلامية ، إذ أن العرب بدؤا باستخدام الكثير من المعلومات التي جاء بها رجالهم وقوادهم العسكريون وتجارهم عن المناطق التي وصلوا إليها[1] ، يضاف إلى ذلك عناية القادة العسكريين آنذاك في جمع المعلومات الجغرافية عن البلدان التي في نيتهم الإقدام على فتحها[2].

فضلاً عن ذلك هناك عملية افتكاك الأسرى وتبادلهم ، والتي ساعدت كثيرا على تزويد الجغرافيين العرب بمادة غزيرة عن أوربا[3] .

أما الرحلات فكان لها شأن عظيم في هذا المضمار ، وربما يفوق هذا العامل العاملين السابقين ، فقد اتخذت الرحلات طابع النشاط الحيوي ومنذ المراحل الأولى من حياة الدولة العربية الإسلامية ، فقد كان الحج وهو من الفرائض الإسلامية ، عاملاً منشطاً لهذا الجانب ، كما أنّ التجارة قد ساعدت على ربط أراضي الخلافة بعضها بالبعض الأخر وهكذا ساعد العاملان الديني والتجاري على توسيع مدى الأسفار والرحلة[4] .

وللرحلات شأن بالغ في حياة الإنسان ، فهي اكثر المدارس ثقافة ، وذلك نتيجة الاختلاط بالشعوب المختلفة ، فضلاً عن محاولات دراسة أخلاقها وطبائعها[5].

ومن جهة أخرى فقد ارتبطت الرحلة بالجغرافية من خلال أهميتها في الكشف الجغرافي ، الأمر الذي جعل المؤرخين يرون تلك المعرفة قد وضعت اللبنات الأولى

---

(1) كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، 19/1.

(2) المصدر نفسه ، 19/1 .

(3) خوري ، يوسف قزما ، "الجغرافيون العرب وأوربه" ، مجلة الأبحاث ، الجزء الأول ، السنة العشرون ، (آذار – 1967) ، ص357–392 .

(4) كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، 19/1 .

(5) فهيم ، حسين محمد ، أدب الرحلات ، (الكويت – 1989) ، ص21 .

لمـادة الجغرافيـة البشـرية ، والتـي بـدورها تشـكل قاعـدة مهمـة للمقارنـة بـين الـنظم الاجتماعية لدى البشر والتنظير بصدد تطورها[1].

أولا: حروب التحرير والفتوحات العربية الإسلامية في أوربا :-

إن موضـوع حـروب التحريـر والفتوحـات العربيـة الإسـلامية فـي أوربـا ، جـدير بالبحـث الـدائم والتقصـي الـدائب ، فهـو إحـدى صـفحات التـاريخ العربـي المشـرق فـي الأرض الأوربيـة ، التـي لـم تكـن مجـرد عمليـات عسـكرية فحسـب ، لمـا وضـحت آثـاره البعيدة المدى في الحضارة العربية العامة ، فهي مليئة بالشواهد الحية الدالة على الروح الحقيقية لطبيعة هذه الفتوح ، من تسامح وبناء وإصلاح وإيثار للسلم .

لقد كانت بوادر اهتمام المسلمين بالفتوح وحروب التحرير مبكرة ، فكان معاوية بن أبي سفيان أول من فكر بركوب البحر منذ زمن الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب (13-23هـ/634-644م) فأستأذن الخليفة بذلك ، فلم يأذن له ، وذلك بعد أن تقصى عن أحوال البحر برسالة بعثها إلى عمرو بن العاص[*] والي مصر آنذاك ، يطلب منه بوصف البحر ، فلما وقف الخليفة عمر بن الخطاب(ﷺ) على كتاب عمرو بن العاص ، كتب إلى معاوية : "**لا والذي بعث محمداً (ﷺ) بالحق ، لا احمل فيه مسلما أبداً**"[2].

---

(1) فهيم ، أدب الرحلات ، ص 23 .

***عمرو بن العاص: احد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم ، كان قبل الإسلام من الأشداء على الإسلام ، اسلم في هدنة الحديبية سنة ثمان للهجرة ، قبل فتح مكة بأشهر، ولاه النبي محمد(ﷺ) أمرة جيش ذات السلاسل ، وهو الذي فتح مصر ونواحيها في خلافة عمر(ﷺ) وأصبح والياً عليها . ينظر : ابن الآبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس، ط1 ، الشركة العربية للطبع والنشر ، (القاهرة – 1963)، ج1 ، ص13-17 .**

(2) الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، مطبعة الاستقامة ، (القاهرة – 1939) ، ج3، ص316 ؛ ابن الأثير ، محمد بن محمد بن عبد الكريم ، الكامل في التاريخ ، مطبعة الاستقامة ، (القاهرة- د.ت) ، ج3 ، ص48 .

وفي خلافة عثمان بن عفان(ﷺ)**(23-35هـ/644-656م)** أعاد معاوية طلبه موضحاً أهمية البحر ، فأذن له عثمان بذلك ، ويُعّد عثمان بن عفان(ﷺ) أول من وضع خطة للفتوحات الإسلامية في أوربا ، من خلال وصيته الخالدة التي قال فيها : " **أما بعد فان القسطنطينية إنما تُفتَح من قبل الأندلس**[*] **، وإنكم إن فتحتموها كنتم شركاء من يفتحها في الأجر والسلام**"[1].

ويعدّ معاوية أول من نظم أسطولاً في الإسلام ، وأول من أرسل حملة عربية إسلامية للغزو في البحر المتوسط[**] ، وهكذا قامت البحرية وتشجع المسلمون على ركوب البحر وارتياده ، لا سيما بعد انتصارهم في فتح جزيرة قبرص[***] عام 28هـ/648م[2] ، واستعمل على البحر عبد الله

*** الأندلس : مفهوم استعمل للدلالة على شبه الجزيرة الايبرية (أسبانيا والبرتغال) بعد أن احتلت من قبل الوندال التي تعود إلى اصل جرماني وسميت باسمها فاندلسيا أي بلاد الوندال ثم نطقت بالعربية الأندلس ، وتقع الأندلس في الإقليم الخامس وجزء منها في الإقليم الرابع . انظر : ابن صاعد الاندلسي ، أبي القاسم صاعد بن احمد الاندلسي ، طبقات الأمم ، مطبعة محمد محمد مطر ، (مصر – د.ت) ، ص63 ؛ أبو عبيد البكري ، جغرافية الأندلس وأوربا ، ص59 ؛ الحجى ، عبد الرحمن بن علي ، اندلسيات ، ط1 ، دار الإرشاد ، (بيروت – 1969) مج1 ، ص11 ؛ أبو الخشب ، إبراهيم علي ، تاريخ الأدب العربي في الأندلس ، ط1 ، دار الفكر العربي ، (القاهرة – 1966) ص10 .**

(1) الطبري ، تاريخ ، 314/3 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، 47/3 ؛ ارسلان ، شكيب ، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ، مطابع بيبلوس الحديثة ، (بيروت – 1966) ص367-368 .

****- البحر المتوسط : يخرج من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والأندلس ويخرج من المحيط عريضاً ثم يعود فيعظم إلى تخوم الشام، وفيه ثلاث جزائر عامرة أهله هي صقلية وتقابل المغرب واقريطش وتقابل مصر وقبرص تقابل الشام . ينظر: عبود، فلاح شاكر، المقدسي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، 1988، ص67 .**

***** قبرص : كلمة يونانية وافقت بالعربية القبرس أي النحاس الجديد ، وهي جزيرة في بحر الروم . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 305/4 .**

(2) ابن خياط ، أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري ، تاريخه ، تحقيق اكرم ضياء ألعمري ، ط1 ، مطبعة الآداب ، (العراق – 1967) ج1 ، ص136 ؛ ابن كثير ، عماد الدين أبي الفداء ، إسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، (مصر – د.ت) ج7 ، ص153 ؛ ابن العماد ، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق وطبع اوفست كونروغرافير ، المكتب التجاري للطباعة ، (بيروت – د.ت) ج1 ، ص36 .

بن قيس ألحارثي حليف بني فزارة[1] ، وبذلك تكون هذه الحملة أولى الحملات البحرية للوصول إلى أوربا بهدف نشر الإسلام وعقيدته في كل بقاع الأرض ، حتى ولو اضطر الفاتحون لركوب البحر ومواجهة الصعاب .

وبعد ذلك توج العرب المسلمون أعظم انتصاراتهم الساحقة على البحرية البيزنطية عام 31هـ/651م ، في الوقعة المعروفة بأسم **(غزوة ذات الصواري)** وذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفان(ﷺ) ، وكان على رأس الأسطول العربي الإسلامي معاوية بن أبي سفيان " **وأغزى عثمان جيشاً أميرهم معاوية . . . فبلغوا إلى مضيق القسطنطينية وفتحوا فتوحاً كثيرة ، وصير عثمان إلى معاوية غزو الروم**"[2] ، وكان على رأس الأسطول البيزنطي الإمبراطور قسطانز الثاني نفسه ، وانتهت المعركة بتدمير الأسطول البيزنطي ، وهرب الإمبراطور إلى صقلية ، وعنفه أهلها لخيبته ، ومما قالوا له : "**أهلكت النصرانية ، وأفنيت رجالها ، لو أتانا العرب ، لم يكن عندنا ما يمنعهم ، فاصطنعوا له حماما ليدخله فلما دخل الحمام ، دخلوا عليه بالخناجر فقتلوه ، ويقال انهم ذبحوه ذبحاً**[3] .

وتوجه معاوية إلى جزيرة قبرص مرة ثانية ، حيث أن السيادة العربية الإسلامية لم تثبت عليها بعد ، وكان معاوية قد صالح أهلها على جزية يؤدونها سنويا ومقدارها سبعة آلاف دينار ، واشترط معاوية على القبارصة "**ألا يقوموا بغزو المسلمين** "و "**أن**

---

(1) عبد الله بن قيس الفزاري : يقال انه غزا خمسين غزوة بحرية من بين شاتية وصائفة لم يغرق فيها احد ولم ينكب ، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده ، وان لا يبتليه بمصائب احد منهم . انظر : الطبري ، تاريخ ، 317/3 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، 48/3–49 ؛ طرخان ، إبراهيم ، المسلمون في أوربا ، مؤسسة سجل العرب ، (القاهرة – 1966) ، ص61 وهامشها رقم (3) .

(2) اليعقوبي ، احمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر – دار بيروت للطباعة والنشر ، (بيروت – 1960) مج2 ، ص169 ؛ لويس ، ارشيبالد ، القوى التجارية والبحرية في حوض البحر المتوسط (500 – 1100م) ، ترجمة احمد محمد عيسى ، مراجعة محمد شفيق غربال ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة – د.ت) ، ص91 – 92 .

(3) ابن اعثم ، الفتوح ، 131/2 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، 59/3 .

يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم إليهم"[1] وشمل العهد أيضاً على "**أن يبطرق أمام المسلمين عليهم منهم"**[2] وان لا يتزوج أهل قبرص في "**عدونا من الروم إلا بأذننا"**[3].

وتعد جزيرة قبرص أول جزائر البحر المتوسط التي تطلع إليها المسلمون منذ قيام بحريتهم أواخر القرن السابع الميلادي ، وهي جزيرة هامة من حيث الموقع لتأمين فتوح المسلمين في البحر المتوسط ومن ثم التوجه إلى أوربا ، فضلاً عن ذلك ثروتها ، فتكررت غزوات المسلمين لها ومن ذلك غزوة معاوية لها عام 33هـ/653م في خمس مئة مركب ، ونجحت كما نجحت الغزوة الأولى ، واستطاع معاوية فتحها عنوة وهزم الأسطول البيزنطيني[4] .

ولم تتوقف حملات المسلمين على جزيرة قبرص ، حتى في أيام الدولة العباسية حيث تم غزو الجزيرة في عهد الخليفة هارون الرشيد **(170–193هـ / 786–808م)** وتم فتحها عام 190هـ / 805م[5] .

وبعد أن أصبح معاوية خليفة للمسلمين **(41–60هـ / 661–680م)** ، أرسل حملة عام 53هـ / 673م إلى جزيرة رودس[*] بقيادة جنادة بن أمية الازدي[**] ،

---

(1) الطبري ، تاريخ ، 318/3 ؛ ابن اعثم ، الفتوح ، 119/2 ؛ العدوي ، إبراهيم احمد ، الأمويون والبيزنطيون ، (القاهرة – 1953) ص91 .

(2) الطبري ، تاريخ ، 318/3 .

(3) المصدر نفسه ، 319/3 .

(4) البلاذري ، فتوح البلدان ، 181/1–183 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، 69/3 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 165/7 ؛ العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ،ص 92 ؛ بينز ، نورمان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد ، ط1 ، (القاهرة – 1950) ص356 .

(5) الطبري ، تاريخ ، 510/6 .

*** رودس : تعد من اخصب جزائر البحر الأبيض الشرقي ، غزاها المسلمون سنة 28هـ / 648م وسنة 32هـ/652م وغنم المسلمون منها كثيراً ، ومن بينها أنقاض نحاسية لاله الشمس هليوس كان عند ميناءها وسقط بفعل الزلزال . انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، 278/1 .**

**** جنادة بن أمية الازدي : قائد عربي وصحابي جليل كان ثقة وصاحب غزو وهو من شهد فتح مصر وروى عنه أهلها ودخل جزيرة رودس . توفي سنة 80هـ ينظر: ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع= الزهري ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، (بيروت – 1958)**

ففتحها عنوة ، وانزلها قوماً من المسلمين استقروا بها نحو سبع سنوات ، استثمروا خلالها أرضها الخصبة فَزُرِعَتْ ، واتخذوا أموالاً ومواشي يرعونها حولها ، فإذا مسوا ادخلوها الحصن ، ولهم ناطور(*) يحذرهم مما في البحر ممن يريدهم بكيد ، فكانوا على حذر منهم ، وكانوا اشد في ذلك على الروم[1] ، وبعد وفاة الخليفة معاوية وتولي ابنه يزيد الخلافة **(60 – 63هـ/680 – 683م)** سمح للمسلمين المقيمين برودس بالعودة خوفاً عليهم من خطر الروادسة والإمبراطورية البيزنطية. (**)[2] ، إلا أن غزوات المسلمين لم تنقطع عنها ، وتداولت السيادة عليها ، مرة من قبل الدولة العربية الإسلامية وأخرى من قبل الدولة البيزنطية ، ومن ذلك إن الخليفة سليمان بن عبد الملك **(96–99هـ/714–717م)** عندما أرسل أخاه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية

ج7 ، ص439 ؛ ابن حجر العسقلاني ، احمد بن علي بن حجر ، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط1 ، دار الجيل ، (بيروت – 1992) ج1 ، ص502 .

*** الناطور : الناطر والناطور ، من كلام أهل السواد ، وهو حافظ الزرع والتمر والكرم . انظر : ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، لسان العرب ، مطابع كوستاتسوماس وشركاؤه ، (القاهرة – د.ت) ج7 ، ص71.**

(1) ابن خياط ، تاريخ ، 216/1؛ الطبري، تاريخ ، 214/4؛ ابن اعثم، الفتوح، 124/2–127؛ عاقل، نبيه ، الإمبراطورية البيزنطية ، دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري، (دمشق–1966)، ص105.

**** الإمبراطورية البيزنطية : إن تسمية الإمبراطورية بـ((البيزنطية)) تسمية ابتدعها الغربيون حديثاً ، وكان العرب وبقية جيران الإمبراطورية يستعملون كلمة ((الروم)) للدلالة عليها ، وهي الأدق تاريخاً ، فهذه الإمبراطورية كانت امتداد للإمبراطورية الرومانية ، وكان مواطنيها يطلقون على أنفسهم ((الرومان)) بيد أن كلمة بيزنطة يوجد ما يبرر استعمالها فمثلما كانت روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، ومنحتها اسمها ، كذك الحال مع الإمبراطورية البيزنطية ، التي كان مقرها بيزنطة القديمة ، والتي قامت عليها مدينة القسطنطينية ، فكانت عاصمة للإمبراطورية الجديدة . انظر : نوري ، موفق سالم ، العلاقات العباسية البيزنطية (132–247هـ/750–861م) دراسة سياسة حضارية ، ط1 ، (بغداد – 1990) ، ص97 .**

(2) البلاذري ، فتوح البلدان ، 278/1 ؛ طرخان ، المسلمون في أوربا ، ص 83 .

استولى عليها وهو في طريقه إلى القسطنطينية عام 99هـ/717م[1] ، وكان لمسلمة بن عبد الملك آثار كبيرة في حروب الروم ونكايتهم وحصار القسطنطينية ، وكان يلقب بالجرادة الصفراء[2] .

ومن جزر البحر المتوسط الأخرى والتي كانت عرضة لغزوات المسلمين هي جزيرة أرواد[*] ، التي فتحت بقيادة جنادة بن أمية الازدي عام 54هـ/674م ولكن المسلمين لم يلبثوا أن جلوا عنها عندما عادوا من رودس[3] .

وفي عام 55هـ/675م افتتح المسلمون جزيرة قريطش[**] **(كريت)** لكونها طريق المسلمين إلى البلاد البيزنطية ، وكان في نيتهم التوجه إلى القسطنطينية نفسها لمحاصرتها[4] ، وذلك بقيادة جنادة بن أمية الازدي ، وتكرر الغزو لها زمن الوليد بن عبد الملك **(86-96هـ/705-714م)** وتم فتح جزء كبير منها ، واستمرت حتى أيام الخليفة هارون الرشيد إذ تم فتح قسم منها[5] ، إلا أنها لم تخضع للسيادة الإسلامية إلا في مطلع القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وذلك على يد الربضيين[*] الذين

---

(1) الطبري ، تاريخ ، 291/5 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، 146/4-147 ؛ علي ، سيد أمير ، مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكي ، ط1 ، دار العلم للملايين ، (بيروت – 1961)، ص127-128

(2) ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسين ابن هبة الله ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غلامة العمروي ، دار الفكر للطباعة ، ج58 ، ص27-28 .

*** أرواد : جزيرة في بحر الروم قرب القسطنطينية . انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، 279/1 ؛ ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 61/1 .**

(3) البلاذري ، فتوح البلدان ، 279/1 ؛ الطبري ، تاريخ ، 218/4 ؛ ابن اعثم ، الفتوح ، 145/2-146 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، 246/3 .

**** اقريطش (كريت) : من جزائر البحر المتوسط ، فتحت في زمن الوليد بن عبد الملك ، وغزاها حميد بن معيوف أيام الرشيد ففتح بعضها ، ثم غزاها أبو حفص عمر البلوطي أيام المأمون فلم يبق بها من الروم احد. انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، 279/1 ؛ غنيم ، أسمت ، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ، مطبعة عابدين ، (جدة – 1977) ص33-34 .**

4 - finlay , G . , History of Greece , ED . To Zer ,(ox ford - 1877) , vol II , P.267 .

(5) البلاذري ، فتوح البلدان ، 279/1 ؛ العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص99 .

*** الربضيون : نسبة إلى ربض قرب قرطبة وهي ضاحيتها ، قاموا بثورة عنيفة على الأمير الأموي في الأندلس الحكم بن هشام ، والذي عرف بالربضي نسبة إلى ما أوقع بأهل الربض إذ قتل منهم خلقاً كثيراً ومثل بهم ، ثم كف عنهم وانذرهم بالخروج إلى شتى البلدان عدا قرطبة وما قاربها ، وكان للربضيين اثر كبير في**

ثاروا بالأندلس عام 189هـ/202م زمن الحكم بن هشام الأموي **(180-206هـ/ 796-822م)** فقد خرج أولئك الثائرون مهاجرين الأندلس بقيادة أبي حفص عمر بن شعيب البلوطي[**] ، والذي اشتهر فيما بعد باسم الاقريطشي ، وبلغ هؤلاء المهاجرين نحو خمسة عشر ألف رجل ، غير النساء والأطفال ، ووصلوا الإسكندرية واستولوا عليها مدة من الزمن ، وكانت مصر وقتذاك مضطربة بسبب الفتنة[***] بين الأمين والمأمون، فلما استوى الأمر للمأمون **(198-218هـ/813-8**33م) أرسل إليهم من حاصرهم ، وبعد ذلك سهل لهم أمر الرحيل ، وأمدهم بالأموال ثم سيرهم إلى جزيرة كريت[1] .

وفي عام 210هـ/825م عاد أبو حفص البلوطي واستولى على احد حصون الجزيرة ، ولم يزل يفتح الحصون والبلاد ، حتى لم يبق بها من الروم احد[2] ، وخلال

أحداث البحر المتوسط ، ويعزى لهم دور كبير في سيادة العرب عليه ، فهم الذين فتحوا اقريطش ، ومحاصرة سرقوسة ولهم دور كبير أيضاً في عملية فتح صقلية بل لولاهم لفشلت عملية الفتح . انظر : ابن الأثير ، الكامل ، 5/172-173 ؛ ابن الآبار ، الحلة السيراء ، 44-46 ؛ ابن عذاري، أبو العباس احمد المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق خ.س كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، (بيروت – د.ت) ج2 ، ص113-115 ؛ حتي ، فيليب وآخرون ، تاريخ العرب، ط5، دار غندور للطباعة ، (بيروت – 1974) ص589-590 ؛ غنيم ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص36-38.

**** البلوطي : نسبة إلى فحص البلوط قرب قرطبة ، والنسبة إلى هذه الضاحية البلوطي . ينظر : الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، (بيروت – 1975) ص95.**

***** الفتنة بين الأمين والمأمون قامت بسبب عزم الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد ليقدم ولده وهو صبي عمره خمس سنين فأخذ يبذل الأموال للأمراء ليتم له ذلك فنصحه العقلاء فلم يُصِغِ إليهم حتى آل الأمر إلى أن بعث المأمون الجيوش لحربه ومحاصرته ثم قتل .ينظر: ابن الطقطقي ، محمد بن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ، المطبعة الرحمانية ، (مصر –1927) ص159-161 ؛ الذهبي ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز التركماني ، دول الإسلام ، ط2 ، دائرة المعارف العثمانية ، (حيدر آباد الدكن – 1364هـ) ، ج1 ، ص88 ؛ الدوري ، عبد العزيز ، العصر العباسي الأول ، (بغداد – 1944)، ص188-190 .**

(1) البلاذري ، فتوح البلدان ، 1/279 ؛ غنيم ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص44-45 .

(1) البلاذري ، فتوح البلدان ، 1/279 ؛ غنيم ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص 44-45 .

إقامة المسلمين في اقريطش ، لم تنقطع الحروب بينهم وبين بيزنطة ، ورد المسلمون على هجمات بيزنطة ، ودمروا الأسطول البيزنطي عام 226هـ/839 م، وبسبب علاقة مسلمي كريت الوثيقة مع مصر الإسلامية ، مما أدى إلى مهاجمة بيزنطة لدمياط(*) عام 239هـ/853م وذلك زمن ولاية عنبسة بن إسحاق(**) على مصر [1] ، وتكررت غارة الروم لها عام 245هـ/859م[2] .

أما جزيرة صقلية التي تعد اكبر جزائر البحر المتوسط وأهمها ، وتشتهر بخصوصيتها ، فضلاً عن موقعها التجاري ، فأول من غزاها من العرب معاوية بن حديج السكوني(***)

مرسلاً من قبل معاوية بن أبي سفيان في أيام أمارته على الشام في خلافة عثمان بن عفان(رضي الله عنه)[3] ، ويُذكر إن العرب عندما وصلوا في

*** دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر ،على زاوية بين بحر الروم والنيل مخصوصة بالهواء الطيب وعمل الشرب الفائق ، وهي ثغر من ثغور الإسلام ، ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 536/2.**

**** عنبسة بن إسحاق : بن شمر بن عبيد من بني حنبل أمير من قواد بني العباس من أهل البصرة ولاه المأمون إمرة الرقة مدة ، وولاه المنصور مصر سنة 238هـ وحمدت سيرته وانصف الناس غاية الأنصاف . انظر: ابن تغري بردي ، جمال الدين أبي المحاسن ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة ، (القاهرة – د.ت) ج2 ، ص293 ، 300 .**

(2) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، 292/2–295 .

(3) المصدر نفسه ، 308/2–309 .

***** معاوية بن حديج السكوني : وهو أمير وصحابي كان ممن شهد حرب صفين في جيش معاوية بن أبي سفيان ، وكان ممن اخذ بيعة مصر لمعاوية ، وتولى غزو المغرب مراراً واستولى على صقلية ، وكانت وفاته سنة 51هـ . انظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 27/1 ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، 58/1**

(1) البلاذري ، فتوح البلدان ، 278/1 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 18/1 .

غزوتهم هذه إلى صقلية دارت معارك بينهم وبين البيزنطيين وانتصر فيها العرب ، ولما سمع العرب بخبر إرسال الإمبراطور البيزنطي أسطولاً ، غادروا الجزيرة إلى بلاد الشام ، ومعهم الغنائم والسبي ، فبعثوا بها إلى معاوية في دمشق فأخرج منها الخُمسْ وأرسله إلى الخليفة عثمان[1] .

وكان الهدف من هذه الغزوة هو الفتح ، وهذا واضح من خلال حديث احد أفراد الغزوة المسلمين مع صاحب صقلية ، حيث سأل الأخير عن سبب قصد المسلمين البحر ، فقال له المسلم : "**قصدناكم لندعوكم إلى أن تدخلوا في الإسلام ... تقيمون الصلوات الخَمسْ ، وتصومون شهر رمضان وتحجون البيت الحرام ... فقد أنذرناكم واعذرنا إليكم ، فأعلموا إن ما بيننا وبينكم إلا السيف**"[2] ، بينما عزى احد المؤرخين الأوربيين ذلك إلى قيام معاوية بهذه الحملة لمنافسة عبد الله بن سعد[*] الذي حظي عند عثمان بن عفان(ﷺ) بما أصاب من نصر في أفريقية[3] .

وتوقفت الفتوحات العربية الإسلامية لجزيرة صقلية ، وذلك بعد استشهاد الخليفة عثمان بن عفان(ﷺ) ، ولم تحدث غارة على صقلية حتى سنة 46هـ/666م في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، من قبل والي افريقية معاوية بن حديج ، حيث إن

هذه الغارة لم تثبت أقدام المسلمين في الجزيرة ، بل اكتفت بما حصلت عليه من تماثيل وذهب وفضة مطلية بالجواهر ، فأُرسلت إلى معاوية ، فأرسلها بدوره إلى البصرة لكي تحمل إلى الهند وتباع هناك ، حيث رأى إن بيعها وهي قائمة اكثر لثمنها

---

(2) البلاذري ، فتوح البلدان ، 278/1 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 18/1 .

(3) ابن اعثم ، الفتوح ، 145/2 ؛ الدوري ، تقي الدين عارف ، صقلية ، علاقتها بدول البحر المتوسط الإسلامي من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي ، دار الطليعة ، (بيروت – 1980) ، ص22 .

*** عبد الله بن سعد : هو عبد الله بن سعد بن سرح العامري ، فاتح افريقية ، من أبطال الصحابة ، وكان من كُتاب الوحي للنبي (ﷺ) ، وهو أخو عثمان بن عفان(ﷺ) من الرضاعة . ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 9/1 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 250/7 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، 7/1 .**

(4) فازيليف ، العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ، دار الفكر العربي ، (مصر – د.ت) ، ص62.

، فأنكر الناس عليه ذلك إنكاراً شديداً ، وكانت هذه الغزوة قد عادت إلى افريقية بعد أن أقلعت منها[1] .

واستمر الفتح العربي الإسلامي لهذه الجزيرة ، وكان مسلمو افريقية هم الذين تولوا أمر الغزو ، وذلك بحكم موقعهم الجغرافي ، وكان اكثر هؤلاء الغزاة من البربر[*] الذين تعربوا ، لما كان من قلة العرب في ذلك الدور ، ويعد البرابرة اشد الشعوب التي اعتنقت الإسلام بأساً[2] ، وكان الاغالبة[**] حكام افريقية هم الذين قاموا بالنصيب الأكبر في فتح جزيرة صقلية ، واكملوا فتحها ، ودخل جدهم الأغلب بن سالم التميمي[***] إلى المغرب عام 148هـ/765م بعد أن ولاه الخليفة أبو جعفر المنصور **(136-158هـ/754-775م)** عليها ، ودخل الأغلب بلاد المغرب مع محمد بن الأشعث

---

(1) البلاذري ، فتوح البلدان ، 278/1 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 18/1 ؛ لويس ، القوى البحرية ،ص 91 ؛ الدوري ، صقلية ، ص 24 ؛ مورينو ، مارتينو ماريو ، المسلمون في صقلية ، ط2 ، المطبعة الكاثوليكية ، (بيروت – 1968) ، ص6 .

*** البربر : اسم يشمل قبائل كثيرة في جبال المغرب ، وهم أمم وقبائل لا تحصى ، وقد اختلف في اصل نسبهم ، وهم أجفى خلق الله وأكثرهم طيشاً وأسرعهم إلى الفتنة وأطوعهم لداعية الضلالة واصغاهم لنمق الجهالة . انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 368/1-369 ؛ عمر، فروخ ، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، ط1 ، (بيروت – 1959) ، ص25 .**

(2) لويس ، القوى البحرية ، ص 97 ؛ لوبون ، غوستاف ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى ألبابي الحلبي وشركاؤه ، (مصر –1969) ، ص302 .

**** الاغالبة : إحدى الدول المستقلة التي قامت في المغرب الإسلامي منذ أواخر القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، وكان مركزها القيروان في المغرب الأدنى . انظر : بروفنسال ، ليفي ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، (مصر – د.ت) ، ص 104 ؛ سالم ، عبد العزيز ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ط2، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية – 1982) ، ص286.**

***** الأغلب بن سالم التميمي : وهو الجد الأعلى للاغالبة الذين استقروا بافريقية 148هـ على أيام ابنه إبراهيم ، وكان الأغلب من أصحاب أبي مسلم الخراساني وساهم في نشر الدعوة العباسية بخراسان ، وعُرِفَ بالشجاعة والبلاء وحسن الرأي ، وولاه المنصور ولاية القيروان لإخماد ثورة المضرية هناك . ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 86/1 .**

الخزاعي[*] الذي ولاه المنصور مصر وعهد إليه بإخماد ثورة البربر بالمغرب واخمد الفتن واستقر بالقيروان[**] وشرع في بناء أسوارها[1] .

وهكذا وبالحملات العسكرية المتواصلة ، أصبحت صقلية تحت سيادة العرب المسلمين . وبذلك اصبح احد مفاتيح البحر المتوسط في أيدي العرب ، بعدما استغرق الفتح العربي لها سبعاً وسبعين سنة ، واستمر حكم العرب للجزيرة ، غازين وفاتحين وممدنين مدة 233 عاماً هجرياً **(224 عاماً ميلادي)** من سنة **(217-450هـ/ 832-1056م)** إلى أن احتلها النورمان وأقاموا حكمهم فيها[2] .

وتكمن أهمية هذه الجزيرة في كونها نقطة وثوب على جنوب ايطاليا لقربها منها ، فمن خلالها كان العرب يشنون غاراتهم عليها ، في سنة 225هـ/839م وصل العرب المسلمون إلى احد المدن الإيطالية وتم فتحها[3] ، وفي سنة 228هـ/842م سار الجيش الإسلامي في اسطول إلى ايطاليا واستمروا بالغزو لها حتى استولى العرب المسلمون عام 232هـ/846م على مدينة طارنة من ارض انكبردة وسكنوها ، ووصل المسلمون في غاراتهم إلى مدينة روما نفسها[4] ، أما السيادة الحقيقية للعرب المسلمين في ايطاليا فكانت في عام 275هـ/888م وذلك عندما جهزت افريقية أسطولاً كبيراً لمواجهة اسطول الروم ، إذ اشتبكت مع العدو وضربته ضربة قاصمة ، وبهذه المعركة العظيمة بدأ نجم الإسلام يبزغ في أوربا[5].

*** محمد بن الأشعث الخزاعي : تولى ولاية مصر أواخر عام 141هـ/759م وعزل عنها أوائل سنة 143هـ/760م . انظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، 1/346-348 .**

**** القيروان : تقع في الإقليم الثالث ، وهي مدينة عظيمة بافريقية غبرت دهراً وليس بالغرب مدينة أجل منها إلى أن قدمت العرب بافريقية واخربت البلاد ، ومصرت في الإسلام أيام معاوية . انظر :ياقوت الحموي، معجم البلدان ، 4/420-421 ؛ ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 3/1139 .**

(1) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، 1/346-348 .

(2) ابن الأثير ، الكامل ، 5/186-187 ،306-307 ؛ المدني ، أحمد توفيق ، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، المطبعة العربية ، (الجزائر – د.ت) ، ص28 .

(3) ابن الأثير ، الكامل ،5 /186-187 ،306-307؛ ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص 369 .

(4) ابن الأثير ، الكامل ،5 /186-187 ،306-307 ؛ فازيليف ، العرب والروم ، ص 184 .

(1) ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص 370 ؛ مورينو ، المسلمون في صقلية ، ص 17-18 .

ومن جزر البحر المتوسط الأخرى التي تعرضت لغزوات المسلمين جزيرة قوصرة[*] ، فقد دعت الضرورة العسكرية لفتحها لتأمين فتوح المسلمين في شمال أفريقية ، ويقال أنها فُتِحَتْ أيام معاوية بن أبي سفيان ، والراجح إن أول من غزاها عبد الملك بن قطن الفهري[**] ، وذلك خلال ولاية موسى بن نصير على افريقية عام 88هـ/707م[1] .

إلا أن الاستيلاء النهائي على الجزيرة كان حوالي عام 135هـ/748م على يد عبد الرحمن بن حبيب الفهري[***] ، وقد اتخذ الاغالبة قوصرة قاعدة لهم لغزو صقلية[2] .

أما جزيرة مالطة[*] التي تميزت بحسن موقعها ، فيبدو إن أول غزو إسلامي لها فيما ذكره ابن الأثير كان سنة 221هـ/837م ، فقد ذكر في حوادث هذه السنة

*** قوصرة : كلمة قوصرة Cossyra اسم يوناني معناه السلة أو السفط أو الزنبيل ، ولفظة قوصرة في اللغة العربية لها هذا المعنى نفسه ، فيقال القوصرة وعاء التمر ، وفي بيت لعلي بن أبي طالب (ﷺ)**

أفلح من كانت له قَوْصَرَّةْ يأكل منها كل يوم تمرة

وقد وصفها الجغرافيون العرب بأنها خصيبة وبها آبار وأشجار وزيتون وفيها معز برية متوحشة ، ولها من جهة الجنوب مرسى مأمون من الرياح . انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 413/4 ؛ ابن كثير ، البداية النهاية ، 2/8 .

**** عبد الملك بن قطن الفهري : تولى ولاية الأندلس مرتين أحداها سنة (114–116هـ/732–734م) ومكث بها مدة سنتين تقريبا ، والثانية سنة 123هـ/741م واستمر بها نحو سنة . انظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 28/2 ، 30–31 .**

(2) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 60/1–68 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، 219/4 ، 250 .

***** عبد الرحمن بن حبيب الفهري : ولّيَ افريقية عام 129هـ/748م وكان مغتصباً للولاية وظل بها خلال حوادث القضاء على الدولة الأموية بالشرق ، وقيام الخلافة العباسية ، وقُتِلَ زمن أبي جعفر المنصور ، على يد أخيه الياس بن حبيب . انظر : ابن الأثير ، الكامل ، 227/4–228 ؛ ابن عذاري ، البيان المُغرب ، 60/1–68 ؛ سالم ، تاريخ المغرب ، ص 245–248 .**

(3) لويس ، القوى البحرية ، ص 213 .

بصدد حديثه عن زيادة الله الاغلبي[*] "**وفيها – أي سنة 221هـ – جهز أسطولاً فساروا نحو الجزائر[**]، فغنموا غنائم عظيمة ، وفتحوا مدناً ومعاقل وعادوا سالمين**"[1] .

وربما تكون هناك غزوات سابقة لها ، وان المسلمين فتحوا الجزيرة أو بعضها ، إلا أن السيادة الإسلامية لم تثبت عليها ، فتكررت الغزوات عليها ، مثل غزوة عام 209هـ/824م ، وجاء الاستيلاء النهائي لها عام 256هـ/872م ، زمن أبي عبد الله محمد الاغلبي الملقب بأبي الغرانيق[***] **(250–261هـ/864–874م)** [2] ، وبعد استيلاء الأغالبة على مالطة ولواحقها ، أضحت جميع الجزر في المنطقة الوسطى من حوض البحر الأبيض في أيدي المسلمين ، ومن ثم تأكدت سيطرة المسلمين على المضايق الواقعة بين صقلية وافريقية

*** مالطة : عُدت حوض البحر الأبيض الشرقي في العصور الوسطى ، وكذلك العصور الحديثة . واسمها يوناني ميليتة Miletus واشتهر هذا الاسم حوالي 828 ق.م ومعناه النحل . فحرفها المسلمون إلى مالطة ، والمعروف عن تاريخها قبل الفتح إنها كانت خاضعة للفينيقيين في القرن السابع ق.م ،=**

ثم الرومان عام 218ق.م وظل الرومان فيها نحو عشرة قرون ، بعد ذلك أصبحت جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية . انظر : ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص 354–358 .

**** زيادة الله الاغلبي: كان اعظم أمراء بني الأغلب وأفضلهم على الإطلاق ، كان رجل بناء وتشييد ، بالإضافة إلى مقدرته وكفايته الحربية ، تولى إمارة افريقية (201–223هـ) بعد وفاة أخيه أبي العباس وكان ابيّ النفس .انظر: ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد بن خلدون الحضرمي ، تاريخ ابن خلدون ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، (بيروت – 1979) ، مج4 ، ص197–200 ؛ سالم ، تاريخ المغرب ، ص 294–306 .**

***** يرجح أن هذه الجزائر هي جزائر الأرخبيل المالطي ولواحقها وهي جزيرة غوزو Gozo وكومينو Comino ، وكومينوتو Comintto ، وفلفو filfoa . انظر : ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص 353**

(1) الكامل في التاريخ ، 188/6 ؛ ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص 354 .

****** أبو عبد الله محمد الاغلبي : هو محمد بن احمد تولى إمارة افريقية بعد وفاة زيادة الله الاغلبي (250–261هـ/864–874م) ولُقِبَ بأبي الغرانيق بسبب حبه لصيد الغرانيق وهي طيور مائية سوداء وقيل بيضاء ، ويقال انه بنى قصرا لصيدها انفق فيه ثلاثين ألف دينار ، انظر : ابن الأثير ، الكامل ، 192/6 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 150/1 .**

(2) ابن الأثير ، الكامل ، 192/6 ؛ ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص 354.

[1] ، وكان مقام المسلمين بمالطة أطول من مقامهم بصقلية حتى أن أصول لغة مالطة هي العربية[2] .

أما جزائر حوض البحر الأبيض الغربي فأولها الجزائر الشرقية[*] ، وعدت هذه الجزر مضافة إلى الأندلس[3] ، وأول غزو إسلامي لها كان زمن حوادث الفتح الإسلامي لأسبانيا[**] ، فقد أرسل موسى بن نصير والي افريقية والمغرب قوة بحرية بقيادة ابنه عبد الله ، فغزا جزيرة ميورقة[***] **"وَغَنِمَ ما لا يحصى وعاد سالماً"**[4] وتكرر غزوها بعد ذلك زمن الخليفة عبد الرحمن الثاني بن الحكم **(206-238هـ/821-852م)** حيث انه جهز أسطولاً من ثلاث مئة مركب سنة 234هـ/848م وسيره **"إلى أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة**[****] **، لنقضهم العهد ، وأضرارهم بمن يمر إليهم من مراكب المسلمين ، ففتح الله للمسلمين عليهم ، واظفر بهم فأصابوا سباياهم ، وفتحوا اكثر جزائرهم"**[5] .

ويبدوا إن هذه الأعمال الحربية لم تكن فتحاً ولا مستقراً للمسلمين في هذه الجزر ، وذلك من خلال ما حدث في العام التالي من ردة فعل أهل هذه الجزر ، ففي سنة

---

(1) لويس ، القوى البحرية ، ص 170 .

(2) ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص 354 .

*** الجزائر الشرقية : وسميت بالشرقية لوقوعها شرق الأندلس ، واهم جزرها (ميورقة ومنورقة ويابسة) وتشتهر بجمالها وخصوبتها . انظر : المقري ، نفح الطيب ، 158/1 ؛ ألحجي ، عبد الرحمن علي ، التاريخ الاندلسي ، ط1 ، دار القلم ، (بيروت – 1976) ، ص260 .**

(3) ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق زكي محمد حسن وآخرين ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، (القاهرة – 1953) ، ج2 ، ص465 .

**** أسبانيا : جاءت التسمية من اشبانيا حيث كان النصارى يطلقون اشبانيا على الأندلس وهذه التسمية نسبة إلى رجل صلب بها يقال له اشبانس ، وقيل بأسم الملك كان بها في الزمان الأول اسمه أشبان بن طيطس . انظر : ابن الأثير ، الكامل ، 119/4-120 .**

***** ميورقة : جزيرة في شرقي الأندلس . انظر :ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 1346/3 .**

(4) ابن الأثير ، الكامل ، 221/4 .

****** منورقة : جزيرة عامرة في شرقي الأندلس قرب ميروقة . انظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 1325/3 .**

(5) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 89/2 ؛ ابن سعيد ، المغرب ، 49/1 .

235هـ/849م قاموا بإرسال كتاب إلى الخليفة مستغيثين مما دهمهم من سخطة مستقيلين لعثراتهم لديه ، راغبين في صفحه وأقالته ، فعطف عليهم ، وأقالهم زلتهم ، وأجابهم مسألتهم ، وأعطاهم ذمته وجدد لهم عهده[1] .

وتشير لنا أحداث سنة 290هـ/902م عن افتتاح جزيرة ميورقة التي هي اكبر من جزيرتي منورقة ويابسة[*] ، فيذكر الحميري أن المسلمين افتتحوها سنة 290هـ[2] .

وتعرضت هذه الجزر للغزو بعد قيام دويلات الطوائف[**]في الأندلس **(422-484هـ/1031-1091م)** واستقلال بني عامر[***] بشرق الأندلس ، حيث سنحت الفرصة لمجاهد العامري[****] لغزو هذه الجزر وفتحها في عام 405هـ/1014م ، وأعلن استقلاله بدانيه[*] حوالي عام 413هـ/1022م[3] ، واتخذها عاصمة له ، وغدت

---

(1) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 89/2 .

*** يابسة : جزيرة في جهة الأندلس في طريق من يقلع من دانيه في المراكب يريد ميورقة ، وهي كثيرة الزبيب ، وتعرف بجودة خشبها وتعمل اكثر المراكب بها . انظر: ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 1470/3.**

(2) الروض المعطار ، ص 567 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، 164/4 ؛ الحجي ، التاريخ الاندلسي ، ص 263

**** دويلات الطوائف : وهي دويلات قامت بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس عام 422هـ ، حيث فقدت الأندلس وحدتها السياسية ، ويعرف رؤساء هذه الدويلات بأسم ملوك الطوائف . انظر : القلقشندي، صبح الأعشى ، 258/5 .**

***** بنو عامر : وهم سلالة محمد بن أبي عامر الذي ظهر في بلاط الحكم المستنصر الأموي (350-هـ376/961-986م) الذي انصرف إلى شؤون العلم والأدب عن شؤون الدولة . وساعدته صبح زوجه الحكم حتى ولاه قضاة بعض البلاد وبرزت أهميته أكثر بعد وفاة الحكم وتولي ابنه هشام وهو صغير لم يتجاوز التاسعة من عمره فاصبح هو المدبر الفعلي للدولة ، واستعان بالصقالبة واصطنعهم لنصرته . انظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 256/2-261 .**

****** مجاهد العامري : كان احد موالي المنصور بن أبي عامر تمكن من السيطرة على مدينة دانية والجزائر الشرقية خلال فترة اضطراب الأندلس وحكمها باسمه وهو صقلبي مسيحي الأصل ويقترن اسمه كذلك بالرومي وتسمى بالموفق بالله . ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 155/3-156 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، 164/4 ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، 256/5 .**

*** دانيه : مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرقاً . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 510/2 ؛ لسان الدين ابن الخطيب ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط2، الشركة المصرية (القاهرة – 1973) ، ج1 ، ص263 .**

(1) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 155/3-156 .

نقطة وثوب على الجزر الشرقية وسردينية[**] . وأصبحت قاعدة بحرية مهمة ، وعين ابن أخيه والياً على هذه الجزائر فأمضى في حكمها خمسة عشراً عاماً حتى توفى ، وخلفه في حكم هذه الجزائر الأغلب مولى مجاهد وخلال حكم الأغلب مات مجاهد سنة 436هـ/1045م بعد حكم دام زهاء الثلاثين عاماً وخلفه ابنه علي الملقب بإقبال الدولة والذي نهج سياسة والده في حكم هذه الجزائر ودام ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة[1].

أما جزيرة سردينية ، فقد تعرضت للغزو الإسلامي كغيرها من جزر البحر الأبيض وأول غزو إسلامي لها فيما ذكره ابن الأثير كان عام 92هـ/710م فيقول: " **ولما فتح موسى بلاد الأندلس ، سير طائفة من عسكره في البحر إلى هذه الجزيرة سنة اثنتين وتسعين فدخلوها ... وغنم المسلمون فيها ما لايحد ولا يوصف وأكثروا الغلول ... فغرقوا عن آخرهم**"[2] .

وتكرر الغزو لهذه الجزيرة عام 135هـ/752م من قبل عبد الرحمن بن حبيب الفهري وقد صالح أهلها على دفع الجزية[3] ، وتكمن أهمية الجزيرة في كونها نقطة انطلاق لمهاجمة روما ، فضلاً عن أهمية الحصول منها ومن غيرها على العبيد والخشب لصنع السفن[4] .

إلا أن الفتح الحقيقي لهذه الجزيرة تم في القرن الخامس الهجري ومطلع القرن الحادي عشر الميلادي على يد مجاهد العامري الذي كان يهدف الإقامة في الجزيرة لا

**** سردينية : تعد ثاني جزر البحر الأبيض حجماً بعد صقلية ، وتتميز بعدم تعرج سواحلها وقلة موانئها ومن ثم قلة صلاحيتها للملاحة البحرية ، عدا شواطئها الغربية والجنوبية فهي صالحة للملاحة ، مما جعلها هدفاً للمسلمين من ناحية الجنوب وناحية الأندلس . ينظر : أبو حامد الغرناطي ، الرحلة ،ص 104–105 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، 4/124–125 .**

(2) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 3/157–158 ؛ لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة ، 1/221–222 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، 4/164 ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، 5/256 .

(3) ابن الأثير ، الكامل ، 4/124 .

(4) ابن الأثير ، الكامل ، 4/124–125 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 1/65 .

(1) ابن الأثير ، الكامل ، 4/125 .

لمجرد الغزو فقط ، وإنما لتكون نقطة وثوب على غيرها فضلاً عن هدف البعيد لجعل البحر الأبيض بحراً إسلامياً[1] .

وبعد هذه السلسلة من الفتوح الإسلامية في جزر البحر المتوسط ، أصبحت القسطنطينية مدينة إسلامية وعاصمة للخلافة ، وظل نفوذ الإسلام السياسي فيها مدة طويلة ، وقد تمكن العرب أن ينشروا في هذه البلاد دينهم ، ولغتهم ، وخطهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وان يتركوا آثاراً رائعة في حضارتهم الزاهرة وفنونهم الرفيعة ، وان يهذبوا طبائع الأوربيين وأذواقهم[2] .

لم تقتصر فتوح العرب المسلمين على القسطنطينية من خلال غزواتها لجزر البحر الأبيض المتوسط ، وإنما كانت هناك في الوقت نفسه بوادر فتوح أخرى في شبه الجزيرة الايبرية[*] **(الأندلس)** التي كانت ترزخ تحت حكم القوط الغربيين[**] ، وقد بدأ احتلال القوط لها في أوائل القرن الخامس الميلادي ، بعد طردهم للوندال ، إحدى القبائل الجرمانية المتبربرة ، الذين تهجموا بعد ذلك إلى احتلال الشمال الأفريقي ، وطردوا على يد الرومان سنة 534م ، واحتل الوندال ايبرية منذ القرن الثالث الميلادي وحتى الخامس[3] ، وقد استبد القوط بالحكم في أسبانيا لا سيما قبل الفتح الإسلامي

---

(2) المصدر نفسه ، 125/4 .

(3) معروف ، ناجي ، "بلاد أوربية حضرها العرب" ، مجلة الأقلام ، تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد ، السنة الأولى ، الجزء الثاني ، 1964 ، ص10–24 .

*** شبه الجزيرة الايبرية : كان العرب يطلقون عليها اسم الجزيرة الاندلسية مع معرفتهم بأنها شبه جزيرة ، وقد قالوا أيضاً ((جزيرة العرب)) وأطلق شبه الجزيرة الايبرية على أسبانيا والبرتغال ، أما الايبرية فهي نسبة إلى امة قديمة يقال لها (الايبر) كانت اقدم امة عمرت تلك البلاد ، ولم يعرف قبلها هناك امة أخرى ، وجميع الذين استوطنوا هذه الجزيرة إنما جاءوا بعد امة الايبر هذه . انظر : ارسلان ، شكيب ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية ، مكتبة الحياة ، (بيروت – د.ت) ج1 ، ص31 .**

**** القوط الغربيون : شعوب بربرية هبطت من شمال أوربا ، وقوضت صروح الإمبراطورية الرومانية ، فغلبوا على الأندلس واقتطعوها من صاحب روما ، وانفردوا بسلطانهم . انظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، 238/5 ؛ عنان ، محمد عبد الله ، دولة الإسلام في الأندلس من الفتح حتى بداية عهد الناصر ، ط3 ، مؤسسة الخفاجي (القاهرة – 1960) ج1 ، ص28 .**

(1) مؤنس ، حسين ، فجر الأندلس ، ط1 ، (القاهرة – 1959) ، ص2–5 ؛ عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، أوربا العصور الوسطى ، ط3 ، مطبعة لجنة البيان العربي ، (القاهرة – 1964) ، ج1 ، ص88 .

لهـا ، وقـد سـاءت أحوالهـا واضـطربت أحـوال سـكانها بسـبب سياسـة القـوط السـيئة ، فاضطربت حياة سكانها ، واصبح الكثير من الناس يعيشون في شقاء لسوء الأحوال المعيشية ، ولسياسة الاستغلال ، فكان الشعب يستغل لحساب الطبقة الحاكمة المترفة وأصـحاب المصـالح ، وقـد انقسـم الشـعب إلـى طبقـات اجتماعيـة متفاوتـة وهـي طبقـة النبلاء ومنها الطبقة الحاكمة[1] ، وطبقة رجال الكنيسة التي تشارك النبلاء في حكم البلاد والاستمتاع بخيراتها ، وطبقة التجار والزراع والملاك الصغار الذين يتحملون الضرائب المختلفة ، وطبقة عبيد الأرض ، الذين يتبعون مالكها وينتقلون من ملكيتها من سيد لآخر[2] ، وطبقة العبيد التي تكونت من أسرى الحرب ، ويتصرف فيهم بيعاً وشراءً ، ولم تعط لهم ولا لسابقيهم الحقوق التي يستحقون ، فلم ينالوا تكريما[3] ، إن نظام الطبقات نظام غير مشروع وهو بالتأكيد لا يوفر استقراراً ولا عدالة اجتماعية ، فتكون هناك طبقات مترفة على حساب طبقات أخرى محرومة من كثير من حقوقها.

بدأت بوادر حروب التحرير لأسبانيا مبكراً وهو نتيجة طبيعية لحركة الفتوح التي ابتدأت منذ عهد الخلفاء الراشدين ، وقد ارتبطت أحداث الفتح العربي في شمال افريقية بأسبانيا أو الأندلس كما يسميها العرب آنذاك ، ويمكن القول أن فتح أسبانيا هو نتيجة طبيعية لإستكمال فتح وتحرير شمال افريقية ، وهو ثمرة السياسة الحكيمة التي اتبعها العرب في بادئ الأمر مع شمال افريقية الأصليين وهكذا أصبح الجو مهيّأً للعبور إلى قارة أوربا وافتتاح أسبانيا وتخليصها من الحكم القوطي المستبد .

---

(2) الحميري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، نشر وتصحيح وتعليق ليفي بروفنسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة – 1937) ، ص170 ؛ العبادي ، احمد مختار ، في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، (الإسكندرية – د.ت) ، ص51 .

(3) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص 170 ؛ سالم ، عبد العزيز ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، دار المعارف ، (لبنان – 1962) ، ص64 .

(4) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، 170 ؛ الجارم بك ، علي ، قصة العرب في أسبانيا ، مطبعة المعارف ، (مصر – د.ت) ، ص5–6 .

إن فكرة فتح الجزيرة الايبرية **(إسبانيا)** و**(البرتغال**[*]**)**هي فكرة إسلامية قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان(رضي الله عنه) [1] ، فقد كان القائد عقبة بن نافع[**] يفكر في اجتياز المضيق إلى إسبانيا[2] ، وسبق أن كان للمسلمين نشاط عسكري على شواطئ إسبانيا الشرقية **(الجزر الشرقية)** القريبة منها[3] .

أما فكرة الفتح فجاءت مواتية على ما يبدو في الوقت الذي كان موسى بن نصير والياً على افريقية قبل وخلال فتح الأندلس يفكر في تنفيذ فكرة الفتح ، وخلال ذلك ظهرت بوادر التفاعل بين العرب والأسبان ، أبان الفتح العربي الإسلامي لأسبانيا ، عام 92هـ/711م ، حين اتصل الكونت يليان **(خوليان)** حاكم سبتة [***] الاسباني بالوالي موسى بن نصير من اجل إنقاذ إسبانيا ، والانتقام من الملك الاسباني لوذريق الذي اعتدى على شرف ابنته فلورندا ، التي كانت تتثقف في بلاط طليطلة[*] حسب ما جاء في الرواية التي أوردتها المصادر ومفادها "**إن جميع ملوك الأندلس كانوا يبعثون أولادهم الذكور والإناث إلى بلاط ملكهم بطليطلة ... ويكونون بخدمة ملكها لا بخدمة غيرهم ... فلما ولي لوذريق أعجبته ابنة يوليان فوثب عليها فكتب إلى أبيها إن الملك وقع بها ، فأحفظ العلج ذلك ، وقال : ودين المسيح لازيلن ملكه ولأحفرن**

*** البرتغال : في الجانب الغربي من قشتالة ، وهي عمالة صغيرة تشتمل على اشبونة وغرب الأندلس وهي الآن من أعمال جليقية ، وصاحبها متميز بسمته وملكه . انظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، 270/5 .**

(1) ابن كثير ، البداية النهاية ، 152/7 .

**** عقبة بن نافع : الملقب بقاهر الروم والبربر والي افريقية ، من أكابر التابعين وأفاضلهم ، قيل انه ولد قبل وفاة الرسول (ﷺ) بعام واشترك في فتوح مصر ، وهذا لا يجوز منطقياً لأن فتح مصر بعد عام 18هـ فيكون عمره آنذاك تسع سنوات وأغلب الظن انه ولد في عهد الرسول (ﷺ) . انظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 19/1 ؛ سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص 105 .**

(2) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 26/1–28 ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ص 54 .

(3) عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 25/1–26 ؛ لويس ، برنارد ، العرب في التاريخ ، ترجمة نبيه أمين فارس ومحمد يوسف الزايد ، ط1 ، دار العلم للملايين ، (بيروت – 1954) ، ص164–165 .

***** سبته : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، ومرساها أجود مرسى على البحر وهو على بر يقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق ، وهي مدينة حصينة . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 688/2.**

*** طليطلة : مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل وادي الحجارة وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وموضع قرارهم . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 892/2 .**

تحت قدمه ، فبعث إلى موسى بالطاعة"[1] . والذي لا شك فيه إن العرب جاءوا إلى اسبانيا بنية الفتح لا بنية أمداد غيرهم ، وأياً كانت الأسباب ، بدأ موسى استشارته للخلافة الأموية في دمشق في زمن خلافة الوليد بن عبد الملك **(86-96هـ/705-715م)** فترددت الخلافة أول الأمر خوفاً على المسلمين ، ثم تم الاتفاق على أن يسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية "**أن يختبرها بالسرايا ، ولا تغرر المسلمين في بحر شديد الأهوال**" فأجاب موسى إلى ذلك قائلاً :" **ليس ببحر زخار ، وإنما هو خليج يتبين للناظر ما خلفه**"[2] وهنا جاء دور الكونت خوليان الاسباني حيث انه قدم كل العون والتسهيلات والمعلومات عن أحوال بلدة اسبانيا ومسالكها وممالكها إلى العرب الفاتحين ، إضافة إلى الدعم العسكري ، بعد إرسال الحملة الاستطلاعية بقيادة طريف بن مالك[**] ، وبعد الاستطلاع عن المكان ، تم إنزال القوات الإسلامية في رمضان عام 91هـ/710م على الشاطئ الاسباني في المكان المسمى رأس طريف أو جزيرة طريف[*] نسبة إليه[3] ، وعادت الحملة غانمة "**فأصاب سبياً لم يرَ موسى ولا أصحابه مثله حسناً ، ومالاً جسيماً وأمتعة**"[4] .

---

(1) ابن الكردبوس ، أبو مروان عبد الملك ، تاريخ الأندلس لأبن الكردبوس ووصفه لابن الشباط نصان جديدان ، تحقيق احمد مختار العبادي ، معهد الدراسات الإسلامية ، (مدريد – 1971) ، ص43 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 2/6-7 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 1/235-236 ؛ العبادي ، عبد الحميد ، المجمل في تاريخ الأندلس ، جمع المادة إبراهيم الشريف ، راجعه مختار العبادي ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة – د.ت) ، ص47 .

(2) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 1/5-6 ؛ الحميري ، الروض المعطار ، ص 35، 392 .

**** طريف بن مالك : ويكنى بأبي زرعة ، ويبدو انه عربي الأصل فهو ينتسب إلى معافر اونخع القبيلة اليمنية ، وثم أننا نستبعد أن يبعث موسى فرقة استطلاعية تحت قيادة بربري ، فضلاً عن كونه قائداً بارعاً في فنون الحرب والقتال . انظر : ابن الأثير ، الكامل ، 4/122 ؛ الحميري ، الروض المعطار ، ص35 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، 4/254 .**

*** جزيرة طريف : نسبة إلى طريف بن مالك ، وتقع على نتوء في جنوب غرب المثلث الاسباني مقابل الجزيرة الخضراء . انظر : ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص 45 .**

(1) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص 42 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 2/5 ؛ الحميري ، الروض المعطار ، ص 35 ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص 166 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 1/214 .

(2) الحميري ، الروض المعطار ، ص 127 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 1/237-238 .

وفي السنة التالية ، 92هـ/711م قاد طارق بن زياد بنفسه حملة إلى الأندلس حيث انه كان والياً على مدينة طنجة[**] قبل الوالي موسى بن نصير ، ليكون مسؤلاً عن الحامية العربية الجديدة فيها ، ويقال انه كان لطارق بن زياد اتصالات مع الحاكم البيزنطي يوليان **(خوليان)** بشأن الموقف في اسبانيا ، وتشير بعض المصادر إلى عدم معرفة موسى بخطط طارق أول الأمر[1] ، ومن جهة ثانية تؤكد مصادر أخرى عكس ذلك[2] ، على أي حال ، فأن المتفق عليه إن طارق بن زياد هو الذي ابتدأ المراحل الأولى للفتح ، وذلك بسبب موقعه على المضيق الذي يفصل بين قارة افريقية وأوربا ، وقد نزلت الحملة على الطرف الاسباني على جبل

صخري سمي فيما بعد باسم جبل طارق[3] ، وسمي هذا الجبل بعد الفتح باسماء أخرى مثل الصخرة [*] وجبل الفتح[4] ، لكن الشائع هو جبل طارق .

وبعد أن استكمل طارق تجمعاته على الجبل ، وضع الخطة واستكملها–ربما مستفيداً من جوليان وأعوانه – وتم ذلك بكتمان وإحكام ، وكان طارق قد تجهز "**في**

**** طنجة : مدينة على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء من البر الأعظم وبلاد البربر وهي قديمة أزلية . انظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 894/2 .**

(3) البلاذري ، فتوح البلدان ، 230/1–231 ؛ الحميدي ، أبي عبد الله بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الازدي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، مطابع سجل العرب ، (القاهرة – 1966) ، ص248 ؛ لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة ، ص 100 .

(4) ابن الأثير ، الكامل ، 122/4 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 5/2–6 .

(1) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ،ص 47 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 9/2 ؛ الحميري ، الروض المعطار ،ص 224، 382 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 215/1 ؛ طه ، عبد الواحد ذنون ، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال افريقية والأندلس ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، (العراق – 1982) ، ص164 .

*** الصخرة : من أقاليم اكشونية بالاندلس . انظر : ابن عبد الحق ، مراصد االاطلاع ، 834/2 .**

(2) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، 160/1 ، 230 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 9/2 ؛ الحميري ، الروض المعطار ،ص 382 .

سبعة آلاف من المسلمين جلهم البربر والموالي ... في أربع سفن ... ولم تزل السفائن تختلف إليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل"[1] ، وبعد وصول الخبر إلى لوذريق الذي كان منشغلا بقمع بعض الثورات في الشمال ، بدأ يتجهز للقاء الجيش الإسلامي ، ولما علم طارق بأخبار هذا التجمع ، كتب إلى موسى ليستنجده ، فأرسل إليه جيشاً قرابة خمسة آلاف محارب بقيادة طريف بن مالك[2] ، حملتهم سفن كانت من عمل المسلمين ، ولعل يوليان هو الذي قدم التسهيلات لعبور المسلمين ، وبذلك أصبحت عدة الجيش الإسلامي اثني عشر ألف محارب جلهم من المسلمين البربر[3].

وبعد شهرين ونصف تقريباً من نزول طارق وقعت المعركة الفاصلة بينه وبين لوذريق آخر ملوك القوط الغربيين والذي زحف إلى الجنوب بعد سماعه بنزول المسلمين مصطحباً معه جيشاً عدده بين أربعين إلى مئة ألف رجل[4] ، "**وكانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فأتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعد تتمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين**"[5] ، وخلال أيام المعركة الثمانية قدم المسلمون الكثير من الشهداء ، بينما توفر لجيش القوط منها العدد الكبير "**فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رجالة ، ليس فيهم راكب إلا القليل ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فظنوا انه الفناء**"[6] ، وكان التقاء الجيشين في وادي وادي لكة ، ولا يوجد اتفاق في مصادرنا بشأن المكان المحدد

---

(3) المقري ، نفح الطيب ، 238/1 .

(4) ابن خلدون، تاريخ، 54/4 ؛ المقري، نفح الطيب، 238/1؛ الجارم بك ، قصة العرب في اسبانيا ، ص 13 .

(5) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ،ص 39 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 238/1 ؛ الجارم بك ، قصة العرب في اسبانيا ،ص 12 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 162 ؛ الحجي ، التاريخ الاندلسي ، ص 52 .

(1) مؤلف مجهول ، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم ، مطبع ربدنير ، (مجريط – 1867)، ص7 ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ،ص 47 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 241/1 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 166 .

(2) المقري ، نفح الطيب ، 243/1 ؛ الحجي ، التاريخ الاندلسي ،ص 54 .

(3) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 7/2 .

للمعركة ، لكن الروايات الإسلامية والمسيحية تجمع على إنها وقعت في كورة شذونة ، وسميت المعركة باسماء عديدة ، منها ، معركة البحيرة ، ووادي لكة أو بكة ، ووادي البرباط[*] ، ووادي شريش ، والسواني والسواقي[1] ، وتقع هذه الأماكن جميعها في كورة شذونة[**] [2] .

ويبدو لنا من ذلك أن المعركة لم تقتصر على مكان واحد ، بل حدثت كلياً أو جزئياً في كل هذه المناطق المذكورة ، فهي معركة شذونة بأسرها ، وأن اقترن تسمية المعركة بهذه الأماكن ، ما هو إلا دليل على كبر حجمها ، وتشعبها ، بحيث إنها غطت مناطق واسعة من كورة شذونة ، ومما يؤيد هذا الرأي ، إن بقية المعارك بين العرب والقوط لم تكن سوى مناوشات خفيفة بالنسبة لهذه المعركة الفاصلة[3] .

وكانت نتيجة هذه المعركة الحاسمة انتصار الجيش الإسلامي ، وانهزام الجيش القوطي الذي لم يستطيع أن يثبت أمام قوة وحماس المسلمين . أما قائده لوذريق فانهزم هو الآخر ، ولم يعلم مصيره ، وتشير معظم الروايات إلى انه قتل أو غرق في احد المستنقعات المجاورة ، ولم يعثر على جثته أبداً[4] .

وقاتل المسلمون في هذه المعركة قتالا شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ولم يلق المسلمون فيما بعد حرباً مثلها[5] ، مما يدل على ضراوتها ، ومدى التضحية التي بذلت في سبيل إنجاز الفتح ، ومع هذا فإن خسائر المسلمين لا تبدو كبيرة ، إذا

*** وادي البرباط : هو وادي من أعمال شذونة . انظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 175/1 .**

(4) أخبار مجموعة ،ص 9–10 ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ،ص 27 .

**** شذونة : مدينة بالاندلس تتصل نواحيها بنواحي موزور ، وهي منحرفة عن موزور إلى الغرب .ينظر: ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 786/2 .**

(5) ابن الأثير ، الكامل ، 122/4 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 8/2 ؛ الحميري ، الروض المعطار ،ص 339 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ،254/4 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 242/1 .

(1) طه ، عبد الواحد ذنون ، دراسات اندلسية المجموعة الأولى ، ط1 ، (العراق – 1986) ، ص25 .

(2) أخبار مجموعة ،ص 9–10؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس،ص 48؛ ابن عذاري، البيان المغرب ، 7/2–9 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 242/1 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 168 ؛ الحجي ، التاريخ الاندلسي ،ص 57.

(3) المقري ، نفح الطيب ، 243/1–244 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ، ص169 .

ما قورنت بالإنجاز الذي تحقق ، وهو كسر شوكة الجيش القوطي إلى الأبد ، مما مهد الطريق للعمليات العسكرية القادمة ، التي استطاعت أن تسيطر على شبه الجزيرة الايبرية بسهولة ويسر .

وواصل طارق بن زياد تعقب فلول الجيش القوطي الذي لاذ بالفرار وسار الجيش الإسلامي فاتحاً لبقية مناطق شبه الجزيرة الايبرية ، ومحاصرة هذه المناطق وأبادتها ، أو عقد الصلح معها ، إن استسلمت ورضيت بشروط المسلمين ، وهذا ما

حدث في استجة(*) وقرطبة(**) ، بالنسبة لحملة طارق وقرمونة(***) واشبيلية(****) وباجة(*****) ومارده (******) بالنسبة لحملة موسى بن نصير الذي استطاع الوصول إلى جبال ألبرت(*******) ، وان يرسل سرايا للاستطلاع عن هذه الجبال ودخول الأراضي الفرنسية وقد ذكر بعض المؤرخين العرب إن موسى قد عبر جبال ألبرت وتوغل داخل فرنسا ، وانه أراد أن يكمل زحفه عبر أوربا حتى يصل إلى القسطنطينية

*** استجة : كورة بالاندلس ، على نهر غرناطة . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 70/1 .**

**** قرطبة : مدينة عظيمة بالاندلس وسط بلادها ، وهي اعظم بلادها ، وخرب أكثرها وقتل أهلها فصارت كإحدى المدن المتوسطة . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 1078/3 .**

***** قرمونة : كورة بالاندلس غرب قرطبة . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 1081/3 .**

****** اشبيلية : من مدن الأندلس غرب قرطبة . ينظر : الحميري ، الروض المعطار ،ص 58-59 .**

******* باجة: كورة من كور اشبيلية . ينظر : لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة ، 239/2 .**

******** ماردة : مدينة قديمة كان ينزلها الملوك الأوائل ، تقع إلى الشمال الغربي من قرطبة . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،38/5 ؛ الحميري ، الروض المعطار ،ص 518 .**

********* جبال ألبرت : تفصل جبال ألبرت أو البرتات والتي تعرف خطأ بأسم جبال البرانس اسبانيا عن جنوب فرنسا ، والتي تسمى بغالة . ينظر: سالم ، تاريخ المسلمين ،ص 137 .**

عن طريق الغرب[1] ، ومما يذكر أيضاً انه انتهى إلى "**حصن من حصون العدو يقال له قرقشونة**(********)"[2] .

ولابد لنا من الإشارة قبل الاسترسال في عمليات موسى العسكرية بدور أبنائه في الفتح ، عبد العزيز(*) وعبد الأعلى بن موسى ، لا سيما عبد العزيز ، فبعد سقوط اشبيلية ، أرسل موسى ابنيه إلى جنوب وجنوب شرق شبه الجزيرة ، فاستطاع عبد الأعلى أن يفتح كلاً من مالقة(**) والبيرة(***) [3] ، وربما كان ذلك بمساعدة أخيه عبد العزيز الذي توجه إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد ، حيث وصل إلى اريولة(****) والتقى بحاكمها تدمير ، الذي قاوم الفتح العربي ، لكنه توصل أخيراً إلى عقد معاهدة مع عبد العزيز سنة 94هـ/713م حصل بموجبها على شروط مناسبة للصلح ، فقد استمر حاكما على سبع مدن في المنطقة ، مع احتفاظه بالإدارة الداخلية

---

(1) الحميري ، الروض المعطار ، 27 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، 255/4 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 218/1 ، 257-258 ؛ العبادي ، المجمل في تاريخ الأندلس ، 53 ؛ الجارم بك ، قصة العرب ،ص 25-26 .

********** قرقشونة : مدينة في بلاد غالة – جنوب فرنسا – على نهر الأود . ينظر : ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ،ص 14 .**

(2) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ،ص 157-160 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 257/1-259 ؛ ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ،ص 72-73 ؛ علي ، مختصر ،ص 115-116 ؛ الحجي ، التاريخ ،ص 100 .

*** عبد العزيز بن موسى : تولى الحكم في ذي الحجة 95هـ/714م ودامت ولايته سنة وعشرة اشهر ، حتى رجب 97/716هـ في الأندلس ، وكان مقره اشبيلية ، وتزوج من ايلة امراة لوذريق وتسمت بأم عاصم ، واستشهد عبد العزيز مقتولاً في الأندلس . ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ،ص 289-290 ؛ الضبي ، احمد بن يحيى بن محمد ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، مطبعة روخس ، (مجريط-1884)، ص 373 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 23/2 .**

**** مالقة : مدينة بالاندلس عامرة من إعمال رية . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 1221/3 .**

***** البيرة : بلد قرب سميساط وهي قلعة حصينة . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 240/1 .**

(1) ابن الخطيب ، الاحاطة ، 101/1 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 178 .

****** اريولة : مدينة بشرق الأندلس ، من ناحية تدمير . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع، 64/1.**

لهذه المدن ، والحرية في ممارسة الشعائر الدينية لاتباعه ، مقابل دفع مبالغ نقدية وعينية معينة للمسلمين ، وخضوعه لنفوذهم السياسي[1] .

وبعد إقرار الأمور في جنوب شرق الجزيرة ، عاد عبد العزيز ، إمّا حسب رغبته ، أو لأن والده استدعاه بسبب تمرد مدينة اشبيلية ، وقد أيدت هذا التمرد عناصر قوطية ، فهاجموا الحامية العربية الإسلامية في المدينة وقتلوا ثمانين رجلاً ، وفر الباقون إلى معسكر موسى ، الذي كان محاصراً لمدينة ماردة ، وبعد استسلام هذه المدينة ، قاد عبد العزيز حملة على اشبيلية وتمكن من القضاء على التمرد وفتحها بسهولة[2] .

وخلال ذلك وصلت إلى دمشق أنباء فتوحات موسى بن نصير ، وعزمه على التوغل بعمق في شبه الجزيرة الايبرية وعبوره جبال ألبرت، فلم يوافق الوليد على ذلك خوفاً على أرواح المسلمين ، فأرسل رسولاً لاستدعاء كل من موسى وطارق يأمرهما بالتوقف والعودة حالاً إلى العاصمة ، وبذلك عاد موسى وطارق ، أما غالبية جنودهما ففضلوا البقاء في المدن والأرياف المفتوحة حيث استقروا وأقاموا منازلهم[3] ، وقبل رجوع موسى عين ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس ، وقد اختار موسى اشبيلية لتكون عاصمة للبلاد ، وذلك لقربها من البحر ومضيق جبل طارق ، كما جعلها أيضاً قاعدة للدولة العربية الإسلامية في الأندلس[4] .

لم تنته فتوح العرب المسلمين عند هذا الحد ، بل كانت بداية لمرحلة جديدة أخرى ، وهي عبور جبال ألبرت والتوغل في جنوب فرنسا ، واشرنا سابقا إلى أن

---

(2) الضبي ، بغية الملتمس ،ص 4-5 ؛ الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ،ص 62-63 ، 151-152 ؛ طه ، دراسات اندلسية ،ص 19 .

(1) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 15/2 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 258/1 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 180 .

(2) المقري ، نفح الطيب ، 258/1 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 185 .

(3) المقري ، نفح الطيب ، 258/1 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 185 ؛ العدوي ، إبراهيم احمد ، المسلمون والجرمان الإسلام في غرب البحر المتوسط ، ط1 ، دار المعرفة ، (القاهرة – 1960) ص156 .

موسى بن نصير كان أول من عبر جبال ألبرت ، وفتح مدناً في جنوب فرنسا ، إلا إن استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير وطارق بن زياد حال دون ذلك .

وتشير معظم المصادر إلى أن نشاط حركة الفتوح عبر جبال ألبرت ابتدأ في عهد السمح بن مالك الخولاني[*] **(100-103هـ/719-721م)** الذي عينه الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ليكون والياً على الأندلس بدلاً من الحر بن عبد الرحمن الثقفي[*] ، لنزاهته وشدة أيمانه ، فبعد إن استقر في الولاية قضى على بعض الاضطرابات الداخلية واصلح الأمور الإدارية ، وقام ببعض الإصلاحات العمرانية[1] .

وقد شهدت ولاية السمح نشاطاً عسكرياً ، إذ كان جهاده ضد القوى المناوئة للمسلمين من الفرنج وغيرهم هدفاً من أهدافه ، ولهذا ما إن استقرت أوضاعه في الأندلس ، حتى بدأت أعماله الحربية ضد تلك القوى ، فسار بجيش كبير عبر منطقة سرقسطة[**] ، واجتاز جبال ألبرت لقتال الفرنج ، وقد اتخذ من برشلونة[***] قاعدة لتجمع الجيش المتوجه إلى هناك واستطاع أن يدخل إلى سبتمانية[****] ، وكذلك عرفت باسم **(جويثا)** نسبة إلى القوط ، إذ كانت من بقايا مملكة القوط الغربيين ، وكان

*** السمح بن مالك الخولاني : أمير من بني خولان استعمله عمر بن عبد العزيز على الأندلس فقدمها سنة 100هـ/719م واستشهد غازيا بأرض الفرنجة في وقعة طولوشة . ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 26/2 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 219/1 ، 13/4-14 ؛ العدوي ، المسلمون والجرمان ، 157-159.**

*** الحر بن عبد الرحمن الثقفي : تولى الأندلس سنة 97هـ/716م وكانت ولايته سنتين وثمانية اشهر حتى سنة 100هـ/719م قام بنقل الإمارة من اشبيلية إلى قرطبة . ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 25/2 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 219/1 .**

(1) أخبار مجموعة ،ص 24 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 26/2 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 219/1 ، 14/4؛ العدوي ، المسلمون والجرمان ، 156-157 .

**** سرقسطة : بلدة مشهورة من الأندلس . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 708/2 .**

***** برشلونة: تقع على البحر المتوسط شمال شرق الأندلس. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص 86-87.**

****** سبتمانية : ويقال لها السبعية لاشتمالها على سبعة مدن وهي : اربونة ، آقد (آجد) وبيزنة ولوديف وقرقشونة ومجلون . ينظر : ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ،ص 69 .**

يـتحكم بهـا يومئـذ جماعـة مـن نـبلاء القـوط ، وكانـت عاصـمتها اربونـة(*****)[1] ، فاستطاع الاستيلاء عليها بعد حصار دام شهراً وذلك عام 102هـ/721م ويخضعها للمسلمين[2] ، وقد اتخذ السمح من اربونة قاعدة لعملياته الحربية في فرنسا ، ودعم حصونها وشحنها بالحاميات ، كما فرض على أهلها الجزية[3] ، ثم زحف بعد ذلك نحو الأراضي الداخلية باتجاه مدينة طولوشة(*) ، وهي عاصمة اكيتانية . حتى وقف على أبوابها وضرب حصاره عليها ، غير أن طولوشة قاومت الحصار الذي ضربه السمح حولها ، وعندما سمع الدوق اود الفرنجي(**) حاكم اكويتانيا بذلك ، أسرع بجميع حشوده الكبيرة وسار بها نحو السمح ، فلما علم السمح بذلك ترك حصاره لطولوشة ، وتراجع للقاء الدوق وجيشه ، فالتقى الطرفان ودارت معركة عنيفة بالقرب من طولوشة اكثر فيها المسلمون القتل في عدوهم ، كما استشهد كثير من المسلمين[4] ، وكان من بين الشهداء والي الأندلس وقائد الجيش السمح بن مالك ، إذ كان استشهاده يوم عرفة عام 102هـ/720م[5] .

*****- اربونة : وهي الحد الفاصل بين الأندلس وبلاد غالة جنوب فرنسا . ينظر : ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ،ص 89 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 140/1 ؛ الحميري ، الروض المعطار ،ص 24 .

(2) الحميري ، الروض المعطار ،ص 11-12 ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ،ص 147 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 337 ؛ العبادي ، المجمل في تاريخ الأندلس ،ص 54-55 .

(3) ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ،ص 71 ؛ عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 57/1 .

(1) عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 57/1 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 337 .

* طولوشة (تولوز) : تقع في شرقي مدينة بردال (بورودو) . ينظر : ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي ، الجغرافية ، تحقيق إسماعيل العربي ، ط1 ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، (بيروت – 1970)، ص181 .

** الدوق اود الفرنجي : من سلالة الفرنجة الميروفنجيين ملوك فرنسا وكان شبه مستقل بدوقيته . ينظر: طرخان ، المسلمون في أوربا ،ص 123 .

(2) الحجي ، التاريخ الاندلسي ،ص 185-186 ؛ العبادي ، المجمل في تاريخ الأندلس ،ص 55 .

(3) ابن عذاري، البيان المغرب ، 26/2 . وذكرت مصادر أخرى أن استشهاده في ذي الحجة يوم التورية سنة 103هـ . ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ،ص 236-237 ؛ الضبي ، بغية الملتمس ،ص 303/2 .

وقد استطاع مساعدة القائد عبد الرحمن الغافقي[*] ، أن يقود فلول الباقين من الجيش الإسلامي ، ويرجع بهم إلى اربونة ، ومن ثم إلى الأندلس[1] ، وبذلك تكون وقعة طولوشة أول نكسة للعرب في أوربا ، إلا أنها لم تثنِ عزم المسلمين مواصلة فتوحهم في أوربا .

أما إمارة عبد الرحمن الغافقي الذي تولى أمر المسلمين في الأندلس بعد عودته إليها ، فإنها لم تدم طويلاً ، إذ خلف السمح على إمارة الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي[**] **(103-107هـ/721-725م)** [2] الذي واصل الغزو في فرنسا الجنوبية ، وتمكن من الاستيلاء على بعض البلاد مثل قرقشونة التي صالح أهلها على نصف

*** عبد الرحمن الغافقي : من التابعين ورواة الحديث ، تولى الحكم في الأندلس سنة 102هـ/721م وكانت ولايته الأولى شهرين ، أما ولايته الثانية فكانت سنتين وثمانية اشهر (112-114هـ/730-732م) واستشهد في معركة بلاط الشهداء . ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 26/2، 28 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 220/1 .**

(1) ابن عذراي ، البيان المغرب ، 26/2 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 219/1 ، 14/4-15 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ، ص339 ؛ العبادي ، المجمل في تاريخ الأندلس ،ص 56 ؛

Rinaud , M. , Incursions of the Muslims into france , Piedmont and switzetland , translated from the french by : Harun khan , Islamic culture , Iv , 1930, P.261-263.

**** عنبسة بن سحيم الكلبي : تولى الحكم في الأندلس سنة 103هـ/721م من قبل يزيد بن أبي مسلم عامل افريقية واستمرت ولايته أربع سنين وستة اشهر واستشهد في جنوبي فرنسا . ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص319 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 27/2 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 219/1-220، 15/4 .**

(2) مجهول ، اخبار مجموعة ، ص24 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 27/2 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ، ص339 .

أعمالهـــا ، وعلـــى جميـــع مـــن فيهـــا مـــن أســـرى المســـلمين وتعهـــدوا بـــدفع الجزيـة ، والالتـزام بأحكـام أهـل الذمـة ، ثـم اخـذ عنبسـة بعـض الرهـائن وأرسـلها إلـى برشلونة[1].

وكانـت سياسـة عنبسـة قائمـة علـى ضـرورة توجيـه الاهتمـام أولاً إلـى داخـل البلاد ، ولهذا انشغل في المدة الأولى من ولايته في تنظيم شؤونها[2]، وقد ظهرت قوة معارضـة للمسلمين في منطقة الاشتوريش[*] يقودها احد نبلاء القوط يدعى بلاي ، الذي بات يشكل خطراً على المسلمين ولابد من مواجهته ، ولأجل ذلك فقد جهز عنبسة جيشاً لمقاومته عام 104هـ/722م [3]، وعهد بقيادته إلى رجل يدعى علقمة واغلب الظن انه علقمة اللخمي الذي كان قد دخل إلى الأندلس مع طارق بن زياد أيام الفتح الأول ، وهو والد عبد الرحمن بن علقمة اللخمي عامل اربونة ، ولكن بلاي حين علم بمقدمه تحصن في الصخرة التي أطلق عليها فيما بعد صخرة بلاي ، ودارت معركة طاحنة بينهما ، لم يستطع علقمة خلالها مواجهة ثورة بلاي الكبيرة وانتهت باستشهاده مع عدد من قواته[4] .

---

(3) ابن الأثير ، الكامل ، 197/4 ؛ ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص98 .

(1) ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص98 .

*** الاشتوريش : وهي من احواز جليقية وتقع في شمال غرب الأندلس ويذكر إن اسمها جاء من اسم وادٍ يقال له اشترو ومنه شرب جميع بلادهم . ينظر : أبو عبيد البكري ، جغرافية الأندلس وأوربا ، ص72 .**

(2) المقري ، نفح الطيب ، 15/3 ؛ العدوي ، المسلمون والجرمان ، ص165 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ، ص340.

(3) الكربولي ، بديع محمد إبراهيم "أهل اليمن في المغرب والأندلس حتى قيام الإمارات المستقلة عن الخلافة العباسية . دراسة في التاريخ السياسي" . (أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية – ابن رشد – جامعة بغداد ، 2001) ، ص214 .

أما عنبسة فقد سار إلى طرسونة(**) التي خرج أهلها عن طاعة المسلمين فحاصرهم ، ثم تمكن من هدم حصون المدينة والدخول إليها ، فعاقب الذين قاموا بالتمرد على المسلمين والزمهم بدفع غرامة عقاباً لهم[1] .

وواصل عنبسة سيره متوغلاً داخل بلاد غالة ، وكان قد فرض سيطرته على عدة مدن مثل ليون وماكون وشالون[2] ، حتى وصل إلى مدينة سانس . الواقعة على بعد ثلاثين كيلومتر جنوب باريس – وتوقفت هناك حملة عنبسة بسبب قوة دفاعات المدينة[3] ، ويبدو أن عنبسة لم يكن يريد المجازفة في إطالة فرض الحصار على المدينة . وانه أراد أن يظهر قوة المسلمين ويزرع الخوف في قلوب أعدائهم من الفرنج[4] ، ولهذا قرر العودة بجنده وهو في طريقه إلى الأندلس . كانت جموع الفرنج قد تحشدت للإيقاع به وبمن معه من المسلمين ، فالتقى الطرفان في معركة كبيرة ، أصيب خلالها عنبسة بجروح توفى على أثرها في شعبان سنة 107هـ/725م[5] .

وبذلك تكون قد انتهت ولاية عنبسة الكلبي الذي كان له تأثير كبير في تاريخ الأندلس لما حققه من إنجازات حربية مهمة ، لذلك فهو أول قائد إسلامي وصل برايات الإسلام إلى عمق بلاد الفرنج إذ وصل بها قريباً من باريس وهو ما لم يحققه قائد آخر فيما بعد ، وبرغم ذلك فإن جهود عنبسة وراء ألبرت متى بدأ وكم استغرق وهل خرج للجهاد خرجة واحدة أو أكثر ، فهذا غير واضح ، وان المعلومات عن ولاية عنبسة مقتضبة جداً ، وقد أشار ابن عذاري إلى هذا باقتضاب قائلاً : "**في سنة خمس ومئة ، خرج عنبسة غازياً للروم بالاندلس ، وأهلها يومئذ خيار ، فضلاء ، أهل نية في**

** طرسونة : مدينة بالأندلس بينها وبين تطلية أربعة فراسخ . ينظر: ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 884/2 .

(4) ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ،ص 85 .

(5) مؤنس ، فجر الأندلس ،ص 246–247 .

(1) مؤنس ، فجر الأندلس ،ص 247 .

(2) العدوي ، المسلمون والجرمان ،ص 182 .

(3) ابن الأثير ، الكامل ، 197/4 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 27/2 ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ص 254 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 342 .

الجهاد ، وحسبه في الثواب ، فألح على الروم في القتال والحصار ، حتى صالحوه ، وتوفى عنبسة في شعبان سنة سبع ومئة"[1] .

وبعد وفاة عنبسة بن سحيم الكلبي ، اختار أهل الأندلس لانفسهم رجلاً من بينهم من قادة الجيش وهو عذرة بن عبد الله الفهري[*] ، الذي عاد ببقية الجيش إلى الأندلس ، وتولى الإمارة فيها ريثما يأتي أمر الخلافة بشأنها[2] .

وبعد عزل عذرة الفهري تولى الأندلس عدة ولاة[*] ، لم يقم احد منهم بعبور جبال ألبرت ، أما الجهاد والفتح الحقيقي فلم يبدأ إلا بتولي عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي على الأندلس سنة 112هـ/730م[3] ، وكانت هذه ولايته الثانية ، وكان الغافقي من القادة الكفاة الذي ساهموا في حملات الفتح جنوب فرنسا ، وقاد المسلمين بسلام إلى الأندلس ، بعد استشهاد السمح الخولاني في معركة طولوشة ، ويبدو من إجماع عرب الأندلس انه كان نزيهاً ، مؤمناً ، سليم الأيمان ، حريصاً على تطبيق الشريعة فيما يخص توزيع الغنائم على الجنود[4] ، وبعد أن نظم عبد الرحمن البلاد وقضى على الاضطرابات الداخلية ، تهيّأ لمجابهة تحدي الفرنجة وتهديدهم للحكم العربي الإسلامي ، واتخذ من مدينة بنبلونة قاعد لتجميع الجند المتوجهين للجهاد إلى جنوب

---

(4) البيان المغرب ، 27/2 ؛ الحجي ، التاريخ الاندلسي ،ص 190-191 .

*** عذرة بن عبد الله الفهري : تولى الولاية في الأندلس سنة 107هـ/725م وكانت ولايته شهرين وقيل أن عذرة من صلحاء الولاة وفرسانهم . ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 27/2 ؛ المقري ، نفح الطيب، 16/4 . ولا تذكر لنا المصادر العربية أي أعمال حربية أو فتوح لعذرة ، وهذا طبيعي لأن مدة ولايته قصيرة جداً فكانت شهرين فقط .**

(1) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 27/2 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 342 .

*** تولى الأندلس بعد وفاة عذرة في الفترة ما بين 110هـ/728م إلى ولاية عبد الرحمن الغافقي 112هـ/730م مجموعة من الولاة وكانوا خمسة وهم : يحيى بن سلمة الكلبي ، ثم حذيفة بن الاحوص الاشجعي ، وعثمان بن ابي نسعة الخثعمي ، والهيثم بن عبيد الكناني ، ومحمد بن عبد الله الاشجعي ، ولم تتجاوز مدة حكم هؤلاء عدة اشهر ، باستثناء يحيى بن سلمة الذي حكم اكثر من سنتين . ينظر: ابن عذاري ، البيان المغرب ، 27/2-28 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 220/1 ، 16/4-17 ؛ الحجي ، التاريخ الاندلسي ،ص 208-209 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 342-344 .**

(2) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 28/2 .

(3) الحميدي ، جذوة المقتبس ،ص 274-275 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 338 .

فرنسا ، ثم عبر جبال ألبرت حتى وصل نحو بوردو عاصمة دوق اكيتانية ، وعندما أدرك دوق اكيتانية استحالة صد الجيوش الإسلامية الفاتحة ، اضطر إلى الاستنجاد بشارل مارتل حاجب ملك الدولة الميروفنجية الذي ادرك خطر المسلمين ، فشرع في جمع الجند والفرسان من كل صوب ، وقد التقى الجيشان في رمضان عام 114هـ/732م وجرت بينهما مناوشات عديدة استمرت مدة عشرة أيام ، وعرفت هذه المعركة بأسم "**وقعة البلاط**"[1]

أو "**غزوة البلاط**"[2] وعرف الموضع الذي جرت فيه المعركة بأسم "**بلاط الشهداء**"[3] وسميت بذلك لكثرة من استشهد فيها من المسلمين ، والمقصود بلفظة "**بلاط**" في مصطلح مسلمي الأندلس : قصر أو حصن حوله حدائق تابعة له ، وعلى هذا فبلاط الشهداء معناها : قصر الشهداء ، مما يفهم منه إن مكان الموقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة[4] .

وانتهت المعركة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه واستشهاد عبد الرحمن الغافقي ، وما أوردته مصادرنا بشأن ذلك ما أورده ابن عذاري الذي يجعل استشهاد الغافقي سنة 115هـ/732م قائلاً : "**فغزا الروم ، واستشهد مع جماعة من عسكره سنة 115هـ ، بموضع يعرف بلاط الشهداء**"[5] .

وأورد المقري فحوى هذا الخبر إلا انه يجعل استشهاد 114هـ/731م وقال إن الغافقي" **غزا الافرنج ، فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد وأصيب في شهر رمضان سنة 114هـ ، في موضع يعرف ببلاط الشهداء**"[6] .

---

(4) المقري ، نفح الطيب ، 14/4 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 346 .

(1) المقري ، نفح الطيب ، 15/4 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 346 .

(2) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 51/1 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، 16/3 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 220/1 ، 15/4 ؛ العبادي ، المجمل في تاريخ الأندلس ،ص 59 ؛ حتي ، تاريخ العرب ،ص 576 .

(3) أخبار مجموعة ،ص 25 ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ،ص 270–272 .

(4) البيان المغرب ، 51/1 .

(5) نفح الطيب ، 15/4 .

والراجح إن عدد الجيش الفرنجي كان يفوق الجيش الإسلامي ، ولابد إن شارل مارتل كان يستعد ويخطط مبكراً ، هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى كانت في صالح الافرنج ، من معرفتهم للموقع ، وألفة التحرك فيه طبيعةً ودروباً في جوه الشاتي المطير وأرضه الموحلة ووعورة تلالها[1] .

وعلى أية حال فان حركة الفتوح الإسلامية لم تتوقف بعد موقعة بلاط الشهداء ، فقد قام الوالي الذي عين بعد عبد الرحمن الغافقي وهو عبد الملك بن قطن الفهري (114-116هـ/732-734م) في ولايته الأولى بالتوجه إلى شمال أسبانيا ، وكانت ولايته هذه سنتين[2] ، إلا أن نشاط حركة الفتوح في جنوب فرنسا ازداد بشكل ملحوظ في ولاية عقبة بن الحجاج السلولي[*] (116-123هـ/734-741م) الذي أعقب عبد الملك الفهري في ولاية الانلدس ، وكان عقبة من كبار القادة المسلمين الذين قادوا الحملات في شمال اسبانيا وجنوب فرنسا ، حيث اخضع معظم المناطق القلقة في الشمال والشمال الغربي وهاجم بلاي واتباعه ، وثم استأنف الفتوح الإسلامية فيما وراء جبال ألبرت ، ونتيجة نشاطه أصبحت اربونة[**] من أهم القواعد الإسلامية في جنوب فرنسا ، وفي ولايته قام العرب بتحصين كل المواقع التي يستقرون بها والتي كانت تدعي الربط ، جمع رباط ، حتى ضفاف نهر الرون[3] .

---

(6) الحجي ، التاريخ الاندلسي ،ص 196 .

(1) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 28/2 ؛ الحجي ، التاريخ الاندلسي ،ص 209 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 347 .

*** عقبة بن الحجاج السلولي : تولى الولاية في الأندلس سنة 116هـ/734م وكانت ولايته خمس سنوات وشهرين أو أكثر ، وكان يجاهد المشركين في كل عام ويفتتح المدائن ، واستشهد خلف جبال ألبرت . ينظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ،ص 139 ؛ الضبي ، بغية الملتمس ،ص 420 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 29/2 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 220/1-221 ، 18/4 .**

**** اربونة : وهي ثغر الأندلس ، وتقع في أقصى مملكة الأندلس مما يلي افرنجة . ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 8/2 .**

(2) المقري ، نفح الطيب ، 220/1 ، 18/4 ؛ ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ،ص 78-79 .

لقد كان عقبة متحمساً للأخذ بثأر هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء ، وتثبيت أقدام المسلمين فيما وراء جبال ألبرت ، من اجل نشر الإسلام ، وتشير المصادر العربية إلى رغبته الشديدة في هداية سكان المناطق المفتوحة إلى اعتناق الإسلام ، فتروي هذه المصادر انه كان من عادته التي لا يتخلى عنها حينما يأسر أسيراً أنه يعرض عليه الإسلام ، وبهذه الطريقة اسلم على يديه خلق كثير من الناس[1] .

وفي هذه الفترة من ولاية عقبة قامت جيوش الأندلس بمهاجمة العديد من المناطق ، وهاجموا ولايات شارل مارتل ، وهكذا أدركوا ثأر المسلمين في معركة بلاط الشهداء ، وتمكن المسلمون من السيطرة على اربونة التي ظلت قاعدة إسلامية في جنوب فرنسا حتى قيام عهد الأمارة في الأندلس[2] .

وهكذا نرى أن هناك عدة عوامل تحكمت في سير عمليات التوغل العربي الإسلامي في أوربا ، ولا سيما في شمال أسبانيا وجنوب فرنسا ، منها داخلية لها علاقة بالأوضاع العامة في الأندلس ، ومدى نجاح الولاة في تحقيق التوازن بين مختلف العناصر في البلاد ، فكلما كان الوضع مستقراً كان ذلك مشجعاً على القيام بحملات جديدة عبر جبال ألبرت ، ومنها عوامل خارجية فتتعلق بمدى وحدة أو تفكك القوى المعادية ، كمل حصل في بلاط الشهداء على سبيل المثال ، وينبغي أيضاً أن لا ننسى دور العامل الجغرافي، وعدم معرفة المسلمين بتلك المناطق ، فلم يكن العرب متعودين على القتال الطويل في الأجواء المطيرة الشاتية ، والأراضي الوعرة الموحلة ، على العكس من ذلك أهل البلاد الأصليين الذين لم يكن يعوقهم ذلك لأنهم معتادون على تلك الأجواء فضلاً عن أنهم يقاتلون على ارض يعرفونها ، وبعد هذا الاستعراض العسكري لفتوح المسلمين في أوربا ، يظهر لنا أن العرب حاولوا أن يفتحوا قارة أوربا

---

(3) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 29/2 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 220/1 ، 18/4 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ،ص 351 ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ،ص 423 .

(1) ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ،ص 136–139 ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ،ص 281–283 ؛ طه ، الفتح والاستقرار العربي ، ص352 .

من ثلاثة طرق رئيسية الأول من الشرق وهو طريق القسطنطينية والثاني من الغرب وهو طريق الأندلس ، والثالث كان من الوسط وهو طريق صقلية وايطاليا .

فضلاً عن تلك الفتوحات هناك فتوحات أخرى في أوربا الشرقية ، التي كانت هدفاً للحملات العسكرية العربية الإسلامية ، ومن المدن التي تعرضت للفتح الإسلامي مدينة بلنجر(*) التي تميز أهلها بأنهم أهل بأس ونجدة ، حتى أن الحكام الفرس كانوا يدفعون لهم الأموال اتقاء لشرهم(1) .

أما مدينة الصقالبة فقد تعرضت للفتح سنة 98هـ على يد مسلمة بن عبد الملك ، وذلك عند رجوعه من حصاره للقسطنطينية "**وفتح مدينة الصقالبة ثم أغارت عليه خيل برجان ، وهو في قلة من الناس ، فهزمهم الله ، وجهز عمر بن عبد العزيز الطعام والشراب والدواب إلى مسلمة ، وأذن لمن كان له حميم أن يحمل إليهم . . . وغزا مسلمة الترك فأخذ على باب اللان(*) حتى لقي خاقان في جموعة**"(2) .

وتعرضت مدينة الصقالبة للفتح مرة أخرى عام 114هـ/732م وذلك من قبل مروان بن محمد آخر خلفاء البيت الأموي(3) .

وتعرضت مدينة الخزر لهجمات المسلمين مرات عديدة ومتوالية ، ومنها ما حدث عام 104هـ/732م حين دخل جيش المسلمين إلى بلاد الخزر من أرمينية(**)

*** بلنجر : مدينة ببلاد الروم شهد فتحها عدد من الصحابة ، وكان من جملتهم سلمان بن ربيعة الباهلي . ينظر: ابو عبيد البكري ، معجم ما استعجم ، 276/2.**

(2) الطبري ، تاريخ ، 101/2 .

*** اللان : بلاد واقعة في طرف ارمينية ، مجاور الخزر ، والعامة تقول علان ، وهم نصارى يجلب منهم عبيد أجلاد . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 1195/3 .**

(1) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، 32/58 ؛ ابن الجوزي ، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، مراجعة نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، (بيروت–د.ت) ،ج7 ، ص26–27 .

(2) ابن خياط ، تاريخ ، 359/2 .

**** أرمينية : اسم لصقع واسع عظيم في جهة الشمال ، وحدها برذعة إلى باب الأبواب ومن الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبل القبق ، وهي صغرى وكبرى فالصغرى تفليس ونواحيها ، والكبرى خلاط ونواحيها . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 60/1 .**

في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك "**وسمعت به الخزر فأجتمعوا عليه في نيف وثلاثين ألف في موضع يقال له مرج الحجارة . . . فاقتتلوا هناك ، فقتل من المسلمين بشر كثير ، واحتوت الخزر على عسكر المسلمين فغنموا جميع ما فيه**"[1] وقدم المسلمون إلى يزيد بن عبد الملك مع أميرهم فوبخه يزيد على ذلك[2].

وفي السنة نفسها قام يزيد بإرسال حملة أخرى إلى بلاد الخزر ، ليدرك ما أصاب المسلمين في الحملة السابقة ، وأوكل قيادة الجيش إلى الجراح بن عبد الله الحكمي[*] ، وأمره بالمسير إلى بلاد ارمينية حتى دخلها "**وتسامعت به الخزر فهربوا من بين يديه حتى صاروا إلى مدينة الباب[**] والأبواب**"[3] .

وعزم الجراح على المسير إلى الخزر في أثناء الليل "**فرحل المسلمون في جوف الليل ... ثم ساروا حتى انتهوا إلى مدينة الباب والأبواب ، فإذا ليس بها احد من الخزر ... فدخلها المسلمون وخرجوا من الباب الآخر**"[4] .

ولحق بهم الجراح ودنا القوم بعضهم من بعض ، فولى الخزر منهزمين ، واتبعهم مسلمون يقتلونهم ، حتى بلغوا إلى موضع يعرف بالحصين وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وغنم الجراح وأصحابه من غنائم الخزر الشيء الكثير[5] .

وواصل الجراح فتوحه في بلاد الخزر حتى عام 106هـ/724م حين أوغل في بلاد الخزر فصالحوه وأعطوه الجزية[1] ، وفي عام 107هـ/725م عزل الجراح عن

---

(3) ابن اعثم ، الفتوح ، 28/8 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، 186/4 .

(4) المصدر نفسه ، 28/8 ؛ المصدر نفسه ، 186/4 .

*** الجراح بن عبد الله الحكمي : وهو أمير خراسان واحد الأشراف الشجعان ، دمشقي الأصل والمولد . ولاه يزيد بن معاوية أذربيجان وأرمينية وكان ممن غزا الخزر وغيرهم وافتتح حصن بلنجر وحصوناً أخرى ، استشهد غازياً بمرج اردبيل على يد الخزر . ينظر : ابن الأثير ، الكامل ، 186/4-187 .**

**** الباب والأبواب : وتسمى باب الأبواب وهي مدينة على بحر الخزر ، وربما أصاب البحر حائطها وسميت بباب الأبواب ، لأنها أفواه شعاب في جبل القبق ، فيها حصون كثيرة . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 143/1 .**

(1) ابن اعثم ، الفتوح ، 29/8 .

(2) المصدر نفسه ، 30/8 .

(3) ابن اعثم ، الفتوح ، 31/8 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، 83/3-84 .

ولاية أذربيجان(***) حتى سنة 112هـ/730م حيث أعيد إلى الولاية وافتتح المدينة البيضاء(****) التي كانت للخزر ، وزحف بعد ذلك إلى برذعة والتي التقى فيها مع الخزر ، وكانت الوقعة المهولة التي انكسر فيها المسلمون بعد حرب عظيمة انتهت بمقتل الجراح الحكمي[2] .

ومن الأحداث المهمة التي حدثت في أثناء عزل الجراح عن ولاية أذربيجان ما حدث عام 110هـ/728م التي كان فيها الوقعة الشهيرة وقعة الطين والتي التقى فيها مسلمة بن عبد الملك وطاغية الخزر قرب باب الأبواب فاقتتلوا أياماً كثيرة ، وانتهت بانهزام الخزر[3] .

وحدث في عام 114هـ/732م أن عزل مسلمة بن عبد الملك عن ولاية أذربيجان والجزيرة ، ووليها من بعده مروان بن محمد الذي سار بجيشه إلى بلاد الصقالبة ، فأغار عليها وقتل وسبى خلقاً كثيراً منهم[4] .

واستمرت فتوحات العرب المسلمين في أوربا الشرقية ، حتى العصر العباسي وحدث أن قام الخزر عام 183هـ/798م بالخروج من باب الأبواب ، فقتلوا وسبوا خلقاً كثيراً "**فانزعج الرشيد وتجهز لغزوهم ، وطردتهم العساكر عن بلاد الإسلام ، ثم سدوا الباب الذي خرجوا منه**"[5]

---

(4) الذهبي ، دول الإسلام ، 52/1 ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، 133/12 .

***** أذربيجان : صقع حده من برذعة مشرقاً إلى زنجان مغرباً ، ويتصل حده من جهة الشمال ببلاد الديلم والجبل والطرم . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 47/1 .**

****** المدينة البيضاء : مدينة ببلاد الخزر خلف الباب . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 243/1 .**

(1) ابن اعثم ، الفتوح ، 42/8-44 ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، 54/1 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، 89/3 .

(2) ابن خياط ، تاريخ ، 353/2 ؛ ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، 38/58 ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، 53/1 ابن العماد ، شذرات الذهب ، 136/1 .

(3) ابن خياط ، تاريخ ، 359/2 ؛ ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، 38/58 ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، 55/1 ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، 147/1 .

(4) الذهبي ، دول الإسلام ، 58/1 ؛ الشريفي ، إبراهيم ، التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً منذ العهد النبوي حتى العصر الحاضر ، ط2 ، 1971 ، ص125 .

وبذلك تكون فتوحات العرب والمسلمين من المصادر المهمة التي أمدتنا بمعلومات قيمة عن أوربا ، فضلاً عن دورها السامي الأساسي ألا وهو نشر الإسلام في ابعد بقعة من بقاع الأرض.

ثانياً : فداء الأسرى وتبادلهم :-

نجم عن دوام استمرار العلاقات الحربية بين الدولة العربية الإسلامية والدولة البيزنطية ، منذ عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب(ﷺ) ، فقد كانت هذه الحروب سبباً في وقوع أعداد كبيرة من الأفراد من كلا الطرفين في الأسر ، ولما كانت هذه الأعداد بتزايد مستمر ، كان لابد من إيجاد حل مناسب لهذه المسألة ، ومن هنا ظهرت عمليات فداء الأسرى وتبادلهم ، وبدأت هذه العمليات في عهد الدولة العباسية ، إذ لم يكن على حد قول المسعودي فداء أيام الدولة الأموية " **إذ لم يكن في أيام بني أمية فداء معروف مشهود فنذكره ، بل كان يفادى بالنفر بعد النفر**"[1] .

وجرت العادة على إطلاق عبارة فداء الأسرى وتبادلهم على كل أشكال إطلاق سراحهم ، في الوقت الذي أخذت فيه هذه العملية إشكالاً متعددة منها فداء الأسرى وتبادل الأسرى وإهداء الأسرى وإطلاق الأسرى ثمناً للصلح بين الطرفين .

وعملية فداء الأسرى عموماً تعني إنقاذ الأسرى بالأموال ، وهي أول شكل من أشكال إطلاق الأسرى جرى إتباعه بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية ، ومن ذلك ما جرى عام 139هـ/756-757م عندما قام الخليفة أبو جعفر المنصور **(136-158هـ/754-775م)** بمفاداة من بقي حياً من أسرى المسلمين عند الروم[2] .

وفي عام 159هـ/776م هاجم البيزنطيون الدولة العربية الإسلامية واخذوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى ، فأرسل المهدي **(158-169هـ/775-785م)** مولاه فتمكن من استنقاذهم ، أي فدائهم بالأموال[3] .

---

(1) التنبيه والإشراف ، ص189 .

(2) البلاذري ، فتوح البلدان ، 236/1 ؛ الطبري ، تاريخ ، 144/6 .

(3) اليعقوبي ، تاريخ ، 396/2 ؛ الدوري العصر العباسي الأولى ،ص 119 .

أما عملية تبادل الأسرى أو افتكاك الأسرى وهي العملية التي جرت بنطاق أوسع من الأشكال الأخرى ، وكانت متعاقبة تجري بين مدة وأخرى ، وفي الغالب على نهر اللامس(*)، وذكر لنا المسعودي عشر عمليات لتبادل الأسرى جرت جميعها على نهر اللامس المذكور، ولعل التبادل الذي جرى عام 189هـ/804م في فترة حكم كل من هارون الرشيد **(170–193هـ/786–808م)** ونقفور(**) على حد قول المسعودي هو الأول بين الطرفين[1] .

وتعد عملية التبادل الثالث أو الافتكاك الثالث من أهم حوادث الافتكاك ، والتي ساعدت على تزويد الجغرافيين العرب بمادة غزيرة ذات أهمية بالغة عن أوربا ، إذ خلال هذا التبادل خرج أهل زبطرة(***) ، ومعهم مسلم بن أبي مسلم الجرمي(****) الذي خرج من اسر البيزنطيين عام 231هـ/845م ، "**والفداء الثالث فداء خاقان في خلافة الواثق باللامس في المحرم سنة 231هـ ، والملك على الروم ميخائيل بن**

*** نهر اللامس : هو نهر يجري بالقرب من سلوقية على مسيرة يوم من طرسوس . ينظر : الطبري ، تاريخ ، 264/7 ؛ فازيليف ، العرب والروم ، ص176 .**

**** نقفور : من أكفأ القادة البيزنطيين وقد عرف عنه مهارته في القتال واستطاع أن يخوض الكثير من المعارك الناجحة وامتاز نقفور بالصرامة والخشونة وميله الشديد لمصاحبة النساك ورجال الدين وعرف عنه شدة الزهد والتقشف حتى قيل انه كان لا ينام إلا على جلد نمر يفترشه في ارض حجرته ، وفي عبارة موجزة فقد اجتمع في نقفور صفة الجندي وصفة الراهب في آن واحد . ينظر :**

Finlay , G. , History of the Byzantine Empire from DC XIV to ML VII ,(London-1856) . P . 5 -7 ; ostrogorosky , G . , History of the Byzantine state , English Trans, Enssey ,(ox ford - 1956) , P . 253 ; oman , C . , the Byzantine Empire , London , P. 228 -230 .

(1) التنبيه والإشراف ، ص189–190 ؛ الدوري ، العصر العباسي الأول ، ص147 .

***** زبطرة : مدينة بين ملطية وسميساط والحدث في طريق بلد الروم . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 75/2 .**

****** مسلم بن أبي مسلم الجرمي : وهو مسلم بن عبد الرحمن ، كان ثقة ، نزل طرسوس وبها توفي في رمضان من سنة أربعين ومئتين . ينظر : الخطيب البغدادي ، احمد بن علي ، تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، تنسيق محمد أمين الخفاجي ، ط1 ، مطبعة السعادة ، (مصر – 1931) ، ج13 ، ص100 .والجرمي هذه نسبة إلى عدة قبائل كل واحد يقال لها جرم ولا يعلم إلى ايها ينسب الجرمي . ينظر : تيمور ، احمد ، ضبط الإعلام ، ط1 ، مطبعة إحياء الكتب العربية، (القاهرة – 1947) ، ص29 .**

توفيل ... وفي هذا الفداء خرج أهل زبطرة ، وفيه خرج مسلم بن أبي مسلم الجرمي ... وكان ذا محل في الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها ، وله مصنفات في اخبار الروم وملوكها وذوي المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو عليها والغارات عليها ، وما جاورهم من المماليك من برجان والابر(*) والبرغر(**) والصقالبة والخزر وغيرهم"[1] .

ويبدو من هذه الرواية انه كان للجرمي مصنفات عن بلاد الروم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها وما جاورها من الممالك ، إلا أنها الآن مفقودة .

ويؤيد ذلك الأخبار التي أوردها ابن خرداذبة عن تعدد الولايات البيزنطية وينسب هذه المعلومات إلى الجرمي فيقول "**وذكر أن مسلم بن أبي مسلم الجرمي قال : أن أعمال الروم التي يوليها الملك عماله أربعة عشر عملاً ، منها خلف الخليج ثلثه أعمال ، أولها عملاً طافلاً ، وهو بلد القسطنطينية وحده من المشرق إلى الخليج إلى بحر الشام ... والعمل الثاني خلف هذا العمل عمل تراقيه ، والعمل الثالث عمل مقدونية(***) ... ودون الخليج احد عشر عملاً ، عمل افلاجونية(****) وفيه خمسة حصون"**[2] .

فضلاً عن ذلك هناك عملية افتكاك أخرى زودت الجغرافيين بمعلومات هامة عن أوربا وبالذات عن بلاد الروم وايطاليا ، حفظها لنا ابن رستة بالرغم من أن محيط

*** الإبر : قرية من قرى سجستان . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 49/1 .**

**** البرغر : مدينة على ساحل بحر مانطس وهو بحر متصل بخليج القسطنطينية وهم نوع من الترك . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 385/1 .**

(1) التنبيه والإشراف ، ص190–191 ؛ فازيليف ، العرب والروم ، ص240 .

***** مقدونية : وهو اسم لمصر باليونانية القديمة ، وتقع في الإقليم السادس . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 43/5 .**

****** افلاجونية (افلاغونية) : مدينة كبيرة من بلاد الأرمن من نواحي ارمينية ، أهلها نصارى ، من خواصها إسراع الجذام إلى أهلها لأن أكثر أكلهم الكرب والغدد فيهم طبع . ينظر : القزويني ، آثار البلاد ، ص501 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 232/1 .**

(2) المسالك والممالك ، ص105–106 .

المعلومات فيها كان أضيق من المعلومات التي خلفها لنا الجرمي ، وهي حادثة اسر هارون بن يحيى(*) الذي وجد في اسر البيزنطيين حوالي عام 288هـ/900م حيث أخذوه إلى القسطنطينية وأقام فيها بعض الوقت ثم زار رومية(**) عن طريق سلانيك كما زار أيضاً ارض الصقالبة والبندقية(***) ، وفي رومية حصل على معلومات عن برغنديا وبلاد الفرنجة وبرطينية(****) ، ولا شك أن الأخبار التي أوردها لنا هارون بن يحيى عن القسطنطينية لا تخلو من المعلومات المهمة التي تقوم على المشاهدة العيانية فيقول ابن رستة : **"ذكر هارون بن يحيى انه سبي وحمل إلى القسطنطينية عن طريق البحر في المراكب من عسقلان(*****) فساروا ثلاثة أيام حتى بلغوا مدينة يقال لها انطالية(******) ، وهي مدينة على ساحل بحر الروم ثم حملوا منها ... إلى مدينة يقال لها نقية(*******) ... حتى انتهوا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة يقال لها سنقرة ، ثم خرجنا مشاة في مقدار يومين ، ثم ركبنا البحر ، فسرنا مقدار يوم حتى انتهينا إلى مدينة قسطنطينية وهي مدينة عظيمة"**[1] .

---

* هارون بن يحيى : أول رحالة عربي وصف القسطنطينية ، وزارها أما في زمن الإمبراطور باسيل الأول (867–886م) أو في زمن الاسكندر (911–913م) ولم يكن تاجراً ولا سائحاً وإنما كان أسيراً وقع في أيدي البيزنطيين . ينظر : بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص 377–378 .

** رومية : وهي مدينة رياسة الروم وعلمهم . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 642/2 .

*** البندقية : موقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة ، يسكنها البنادقة وهم طائفة مشهورة من الافرنج وملكهم يقال له الدوك . ينظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، 404/5 .

**** بريطينية : جزيرة في وسط البحر المحيط بأقصى شمال الأندلس ، ولا جبال فيها ولا عيون وإنما يشربون من ماء المطر ويزرعون عليه . ينظر : المقري : نفح الطيب ، 157/1 .

***** عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وجبرين ويقال لها عروس الشام ، وكان يرابط بها المسلمون لحراسة الثغر منها . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 940/2.

****** انطالية : بلد كبير من مشاهير بلد الروم وهو حصن للروم على شاطئ البحر منيع واسع الرستاق كثير الأهل بقرب خليج القسطنطينية . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 125/1 .

******* نقية : من قرى البحرين . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 1388/2 .

(1) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص 119 .

ويستمر هارون بوصف ما رآه وما مر به من انهار ومدن وقرى ومنها مدينة بلاطيس "**وهي مدينة عظيمة ... وهي كثيرة الخير فيها من الزيتون وأنواع الفواكه ، ولها نهران جاريان يطردن فيها ، وهي مدينة الانكبرديين**"[1] .

ومن المدن التي مر بها هارون هي مدينة افرنجة ومها انتهى إلى مدينة بريطنية ووصفها بأنها "**مدينة كبيرة على ساحل بحر المغرب**[*] **... وهم قوم نصارى وهم أخر بلاد الروم وليس وراءهم عمران**"[2] .

بعد هذا الاستعراض لتبادل الأسرى ، لابد لنا من معرفة كيف تتم المبادرة بالتبادل ومن هو المبادر الأول ، فنجد إن الإمبراطورية البيزنطية هي التي تسعى في غالب الأحيان إلى تقديم العروض الخاصة بتبادل الأسرى ، ويعود ذلك أساساً إلى أصول تعامل كل من الطرفين مع الأسرى الذين بحوزتهم ، فالدولة العباسية عدت الأسرى فيئاً يجري بيعهم بعد انتهاء المعارك الحربية فيتحولون إلى رقيق في المنازل ، فمثلاً في وقعة عمورية[**] "**اقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه ، وأمر المعتصم أن يعزل منهم أهل الشرف ، ونقل من سواهم ، وأمر ببيع المغانم في عدة**

---

(1) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص128 .

*** بحر المغرب : وهو بحر الشام والقسطنطينية . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 345/1 .**

(2) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص 130 .

**** وقعة عمورية : وهي الوقعة المشهورة التي حدثت عام 223هـ في زمن المعتصم بالله العباسي ، بسبب قيام الإمبراطور البيزنطي بالإغارة على مدينة زبطرة واحرقها واسر من فيها وقام بالسلب والنهب والتخريب والقتل حتى ثار الناس واستغاثوا ، فسار المعتصم بالله في جمع كثير فوغل في بلاد الروم فنزل عمورية فافتتحها عنوة فقتل بها مقتلة عظيمة وسبى سبايا كثيرة وخرب المدينة وهدمها ، وخرب ما خرب من قرى الروم وهربوا في كل وجه ، حتى قيل انه قتل ثلاثين ألف من سكانها وتركها للنهب والسلب والتهام النيران لها من كل جانب ، أربعة أيام كاملة . وبذلك أخذ بثأر المسلمين من أعدائهم الروم . ينظر : ابن خياط ، تاريخ ، 516/2 ؛ الطبري ، تاريخ ، 263/7–266 ؛ ابن العبري ، أبو الفرج غريغو ريوس الملطي ، تاريخ مختصر الدول ، ط2 ، المطبعة الكاثوليكية ، (بيروت–1958) ص34 ؛ حسن ، علي إبراهيم ، التاريخ الإسلامي العام ، ط2 ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1959 ، ص410 .**

مواضع ، وكان لا ينادى على شيء أكثر من ثلاثة أصوات ، وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة ، عشرة عشرة طلباً للسرعة"[1] .

على الرغم من ذلك فان معاملة الأسرى البيزنطيين كعبيد ، ربما وفرت لهم هذه الحالة ظروفاً أفضل مما كان يعيشه الأسرى المسلمون في الإمبراطورية البيزنطية ، فالأسير البيزنطي في بيت سيده تتوفر له كل حاجاته ، لأن الشرع الإسلامي أوصى بحسن معاملة العبيد والأسرى ، ونحن إن كنا لا نفترض أن هذا الأسير عاش في ظروف مثالية ، ولا أن كل المسؤولين في الدولة عاملوا هؤلاء وفق ما أوصى به الشرع[2].

إلا أن أحوالهم على أية حال ، كانت أفضل من حياة معسكرات الأسرى التي عاش فيها الأسرى المسلمون ، الذين تعرضوا أحياناً لإرهاب السيف لتحويلهم عن دينهم ، ولأن المسلمين عاشوا في معسكرات ، لذا ترتب على الإمبراطورية البيزنطية الإنفاق عليهم ، على العكس من الأسرى البيزنطيين ، إذ لم تنفق عليهم الدولة العباسية أي شيء ، في حين ترتب على السلطة الإمبراطورية زيادة إنفاقها على الأسرى كلما زاد عددهم ، لذا فإنها كلما أحست بوطأة أعباء الإنفاق ، قدمت للدولة العباسية عرضاً لتبادل الأسرى[3].

---

(1) ابن الأثير ، الكامل ، 250/6 ؛ أمين ، احمد ، ظهر الإسلام ، مطبعة النجف (القاهرة – 1958) ج1، ص64–65 .

(2) نوري ، العلاقات العباسية البيزنطية ، ص 231–232 .

(3) المصدر نفسه ، ص231–232 .

ثالثاً : الرحلات :-

كانت الرحلات من المصادر المهمة التي زودتنا بمعلومات ذات شأن كبير ومهم عن حياة المجتمعات التي زارها الرحالة ، وكانت رحلات العرب في عصر ما قبل الإسلام ، رحلات في سبيل التجارة ، ومن العرب الذين اشتغلوا بالتجارة قريش ذات النشاط التجاري الواسع ، وكانت تبعاً لذلك كثيرة الرحلات والأسفار وكان لها رحلتان مشهورتان كل عام ورد ذكرهما في القرآن الكريم ، قال تعالى **(لِإِيلافِ قُرَيْشٍ* إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ)** [1] .

أما عند مجيء الإسلام فكان نشر الدعوة الإسلامية سبباً في توسيع الرحلات والأسفار عند العرب المسلمين ، كما كان للحج – لكونه شعيرة إسلامية – من العوامل التي أدت إلى تنشيط الرحلات ، فضلاً عن طلب العلم الذي قال فيه الرسول(ﷺ) **((طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة))** ، وكان المسلمون ينتقلون في سبيل انتجاع المعرفة ، وكان العلماء يحرصون على تدوين مشاهداتهم ليطلع عليها الخلف ويستفيد منها[2] .

ومفهوم الرحلات التي سنتعرض لدراستها هنا ، الرحلات ذات الطابع المتأثر بالملامح الاجتماعية والتي أخذت جانبا لا يستهان به عند الرحالة العرب .

أ – رحلة يحيى بن حكم الغزال (150–250هـ/764–864م)

عرف بالغزال لجماله[3] ، فقد كان جميلاً في صباه وسيماً في كهولته ، كثير القول ، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل ، وهو مع ذلك جليل في نفسه وعلمه ومنزلته عند أمراء بلده الأندلس[4] .

---

(1) سورة قريش ، الآيتان 1 ، 2 .

(2) زيادة ، نقولا ، الرحالة العرب ، دار الهلال ، (بيروت – 1956) ، ص40–41 .

(3) الضبي ، بغية الملتمس ، ص485–486 ؛ ابن دحية ، أبو الخطاب عمر بن حسن ، المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الابياري وحامد عبد المجيد واحمد بدوي ، مراجعة طه حسين ، دار العلم للجميع ، د . ت ، ص143 .

(4) الضبي ، بغية الملتمس ، ص 486 .

كان الغزال شاعراً بديع القول[1] ، ذا مقدرة تعبيرية عالية ، وخاطر حاد ، وبديهية سريعة ، وتمرس بأساليب الدخول والخروج من كل باب من أبواب الكلام[2]

وبسبب هذه الصفات التي كان يتحلى بها ، أوفده عبد الرحمن الأوسط **(206-238هـ/821-852م)** في سفارة له إلى ملك النورمان الشماليين في الدنمارك[3] .

وفي أواخر صيف سنة 231هـ/845م خرج الغزال ومعه في سفارته شخص اسمه يحيى بن حبيب ، وقد صادفته الأهوال في الطريق بسبب هياج البحر وعصف الرياح حينما وصلوا إلى الحد الأعلى من شمال غرب الجزيرة[*] [4].

ومن هذا يتبين لنا إن الغزال لم يكن رحالة ، وإنما كان سفيراً ، ومن شأن الرسل بين الدول أن يتصفوا بخصائص وصفات معينة ، تمكنهم من إنجاز ما أرسلوا من اجله ، وهذا ما وجد في الغزال بوصفه سفيراً .

وقد استطاع الغزال أن يستميل القلوب في بلاط ملك النورمان ، ولما سمعت الملكة بالغزال وظرفه أرسلت إليه لمقابلتها ، فأعجبت به كثيراً ، فأستطاع بإطرائه لها ووصف جمالها أن يجتلب محبتها وينال منها ما أراد على حد قوله : **"اجتلبت بهذا القول محبتها ، ونلت منها فوق ما أردت"**[5] .

---

(1) الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز ، المشتبه في الرجال أسمائهم وأنسابهم ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط1 ، دار إحياء الكتب العربية ، 1962 ، ص484 .

(2) ابن دحية ، المطرب ، ص 139 ؛ العبادي ، المجمل في تاريخ الأندلس ، ص 106-107 .

(3) ابن دحية ، المطرب ، ص 143 ؛ العدوي ، المسلمون والجرمان ، ص 293 ؛ بالنثيا ، انخل جنثالث ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط1 ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة – 1955) ص55

*** وصف لنا الغزال هياج البحر وعصف الرياح في قصيدة انشدها أبو محمد بن حزم مطلعها:**

قال لي يحيى وصِرْنا بين موجٍ كالجبالِ
وتولتنا ريـاحٌ من دبورٍ وشمالِ
شقت القلعتين وأنبتت عُرا تلك الجبال

ينظر : الضبي ، بغية الملتمس ، ص 485 ؛ ابن دحية ، المطرب ، ص 139 .

(4) ابن دحية ، المطرب ، ص 139 ؛ العدوي ، المسلمون والجرمان ، ص 293 .

(5) ابن دحية ، المطرب ، ص 143 .

وبلغ من ولعها به أنها كانت "**لا تصبر عنه يوما حتى توجه فيه ويقيم عندها يحدثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم ، وبمن يجاورهم من الأمم**"[1] .

وكان الغزال قد شارف الخمسين حين قيامه بهذه السفارة ، وقد وخطه الشيب ، فطلبت منه الملكة أن يختضب ، ففعل ، وجاءها في اليوم التالي وقد اختضب ، فمدحت الملكة خضابه وزينته[2] .

وقد اختلفت الآراء في تحديد سفارة الغزال ، هل كانت إلى النورمان أو إلى القسطنطينية ، فذكر لنا ابن سعيد أن عبد الرحمن الأوسط الذي تُوفي سنة 238هـ/852م أما أرسل الغزال إلى صاحب القسطنطينية رسولا من قبله[3] .

وجاء في النفح أن بعث يحيى الغزال إلى ملك القسطنطينية ، ولعله ينقل عن ابن سعيد[4] ، ونجده في موضع آخر من النفح يذكر أن الغزال أرسل إلى **((بلاد المجوس))** نقلاً عن ابن دحية[5] ، وفي صفحة أخرى ينقل عن ابن حيان أن الأمير عبد الرحمن المرداني "**وجه شاعره الغزال إلى ملك الروم**"[6] .

إن التفصيلات التي أوردها ابن دحية عن هذه الرحلة أو السفارة ، حيث قال وهو يتحدث عما صادفهم في الطريق إلى ملك المجوس "**فلما حاذوا الطرف الأعظم الداخل في البحر الذي هو حد الأندلس في آخر الغرب**"[7] ، وهذا القول واضح الإشارة إلى أن المقصود هنا هو النورمان في بلاد الدنمارك .

---

(1) ابن دحية المطرب ، ص 143 ؛ بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص 56 ؛ مظهر جلال ، اثر العرب في الحضارة الأوربية ، ط1 ، دار الرائد ، (بيروت – 1967) ، ص365 .

(2) ابن دحية ، المطرب ، ص 147 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 24/3 ؛ مظهر ، اثر العرب ، ص 365–366 .

(3) المغرب ، 57/2 .

(4) المقري ، 25/3 .

(5) المصدر نفسه ، 24/3 .

(6) المصدر نفسه ، 25/3 .

(7) المطرب ، ص 139 .

إلا أن المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال أنكر أن تكون هذه السفارة إلى النورمان وقال إن الصواب هو أن الغزال توجه في سفارته إلى بلاد القسطنطينية[1].

إلا أن التفصيلات التي أوردها لنا ابن دحية هي الصحيحة إذ قدم لنا أوسع المعلومات عن هذه الرحلة وعن هذه السفارة ، إذ يذكر وصف الغزال أحوال الجزيرة التي ألقت السفن فيها مرساها ، واختبار أحوال أهلها ، وجمع المعلومات عن دينهم وطرق معيشتهم بقوله : "**وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط ... فيها من المجوس ما لا يحصى عددهم ... وهم اليوم على دين النصرانية وقد تركوا عبادة النار ، ودينهم الذي كانوا عليه ، ورجعوا نصارى**"[2] .

وهذا دليل واضح وقاطع على أن سفارة الغزال كانت إلى النورمان ، بينما يرى الأستاذ عنان أن الغزال أوفد في سفارتين احدهما إلى القسطنطينية والأخرى إلى النورمان بلاد الدنمارك[3] .

أما شخصية الغزال في شعره ، فهي انه لا يتصيد المناسبات إذا حلا له قول الشعر لمدح الأمراء ، بل لا يتردد في هجوهم وهجو رجالهم ، إذا تراءى له ذلك ، وربما قال من الشعر ما يمس العقيدة ويتعرض بسبب ذلك لغضب الفقهاء[4].

ويتميز شعره بواقعيته التعبيرية ، والمسلك الواقعي في تعليل أمور الحياة ، وربما كان هذا هو السر في طرافة شعره وظرافة شخصيته وفي الوقت نفسه هو العلة في ما شاع في شعره من سخرية مرة[5] .

توفي الغزال عن عمر ناهز الأربعة والتسعين عاماً ، إذ انه ولد في إمارة عبد الرحمن بن معاوية ، ومات في إمارة الأمير محمد سنة 250هـ[6] .

---

(1) الإسلام في المغرب والأندلس ، ص 113 .

(2) المطرب ، ص 140 ؛ العدوي ، المسلمون والجرمان ، ص 294 .

(3) دولة الإسلام في الأندلس ، ص278-280 .

(4) العبادي ، المجمل في تاريخ الأندلس ، ص 107 .

(5) الالوسي ، حكمت علي ، "يحيى بن الحكم الغزال" ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، العدد 21 ، (بغداد-1971) ، ص196-211 .

(6) الضبي ، بغية الملتمس ، ص 486 ؛ الذهبي ، المشتبه في الرجال ، ص 484 .

ولعل ذكر الغزال الذائع الصيت وأخبار سفارته ورحلاته جعله يجد الناس يلهجون بذكره عندما دخل بغداد منفياً[1] ، الشيء الذي جعل المشرق العربي يتعرف على اخبار أوربا بواسطة الغزال مباشرة .

ب- رحلة أبي موسى المنجم (227-259هـ/842-873م)

هو محمد بن موسى بن شاكر ، أبو عبد الله ، عالم بالهندسة والحكمة والموسيقى والنجوم[2] .

كانت رحلته بأمر الخليفة الواثق ، وكانت على مرحلتين ، الأولى توجه فيها إلى بيزنطة ، بعد الحصول على موافقة إمبراطور بيزنطة لمشاهدة كهف الرقيم بين عمورية ونيقية[*] ، والأخرى إلى بلاد الخزر[3] .

والظاهر أن قصة الرحلة نالت بعض الانتشار حتى في أثناء حياة الرحالة ، فنجد أن ابن خرداذبة يرويها بألفاظ المؤلف نفسه[4] ، بينما نجدها عند المسعودي مقتضبة[5] ، بينما كانت عند ابن خرداذبة أكثر تفصيلاً .

ويبدو أن هذه الرحلة واقعة تاريخية صحيحة ؛ لأن ابن خرداذبة رواها بألفاظ المؤلف نفسه فقال : "**إن ملك الروم وجه معه من صار به إلى قرة ، ثم سار أربعة مراحل . ولذا جبيل قطر أسفله اقل من ألف ذراع ، وله سرب وجه الأرض ينفذ إلى الموضع الذي فيه أصحاب الرقيم**"[6] .

---

(1) ابن سعيد ، المغرب ، 445/1 .

(2) الزركلي ، خير الدين ، الإعلام ، ط3 ، ج7 ، ص337 .

*** نيقية : من أعمال اسطنبول على البر الشرقي . ينظر : ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ، 1412/3 .**

(3) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص 106 ؛ أبو سعد ، احمد ، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي ، دار الشرق الجديد ، (بيروت – د.ت) ، ص25-26 .

(4) المسالك والممالك ، ص 106 ؛ مال الله ، علي محسن عيسى ، أدب الرحلات عند العرب في المشرق نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري ، مطبعة الإرشاد ، (بغداد-1978) ، ص37 .

(5) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط5 ، دار الفكر (بيروت-1973) ج1 ، ص314-315 .

(6) المسالك والممالك ، ص 106 .

وبعد هذا نجد إن هذه الرحلة حقيقية قد اجمع الكتاب على صحتها وواقعيتها[1] .

أما رحلة المنجم الثانية فكانت إلى بلاد الخزر ، في صحبة سلام الترجمان[*] إذ قيل أن الخليفة الواثق قد أرسل سلام الترجمان إلى بلاد الخزر[2] ، بسبب إن الواثق رأى في منامه كأن السد الذي بناه ذو القرنين بينهم وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح ، فطلب رجلاً يخرجه إلى الموضع فيستخبره خبره ، فقيل له : ما هاهنا أحد يصلح الإ سلام الترجمان ، وكان يتكلم ثلاثين لساناً ، فدعا به الواثق[3] .

ولا يمكن أن يكون الباعث الحقيقي لهذه الرحلة ، ذلك الحلم الذي رآه الخليفة في منامه كما يزعم الرواة[4] .

وربما اتخذ الواثق من هذا الحلم ذريعة لسبب حقيقي قد يكون سياسياً ولعله أراد أن يبين مقدرته على الهيمنة على تلك الأقطار[5] .

وقد استمرت هذه الرحلة ثمانية عشر شهراً[6] ، وعلق الدكتور زكي محمد حسن على هذه الرحلة فقال : "**ومهما يكن من أمر هذه الرحلة ، فإننا لا نعرف عنها إلا بعض المقتطفات في كتب الجغرافية والتاريخ ، ولا سيما نزهة المشتاق للإدريسي ومعجم البلدان لياقوت**"[7] .

والمهم من هذه الرحلة أن أصحابها قد نقلوا لنا عن أحوال تلك البلاد وما شاهدوه هناك ، إذ أنهم التقوا بالأقوام هناك الذين اخذوا يسألونهم عن مكان قدومهم

---

(1) كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، 133/1 .

*** سلام الترجمان : رحالة كان يجيد عدة لغات . ينظر : ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص 163 .**

(2) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص 163 ؛ مال الله ، أدب الرحلات ، ص 31 .

(3) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص 162 ؛ أبو سعد ، أدب الرحلات ، ص 25 .

(4) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص 362 .

(5) مال الله ، أدب الرحلات ، ص 31 .

(6) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص 168–170 ؛ حسن ، زكي محمد ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار المعارف ، (مصر – د.ت) ص16 .

(7) الرحالة المسلمون ، ص 17 .

فقال سلام الترجمان : "**فأخبرناهم نحن رسل أمير المؤمنين**"[1] ، فأنتابهم العجب لذلك واخذوا يسألون عن الخليفة أهو شيخ أم شاب؟ فرددنا عليهم بأنه شاب ، فعجبوا لذلك ، فقالوا : أين يكون ، فقلنا "**بالعراق في مدينة تسمى سامراء**"[2] .

وبذلك تكون هذه الرحلة ذات أهمية بالغة في تعريفنا عن أوربا وأحوالها الثقافية ، ولا سيما إن هؤلاء الأقوام كانوا في شوق لمعرفة الكثير عن أحوال الدولة الإسلامية وعاصمتها ، وعلى التعرف على الخليفة ومحاولة الاتصال بالعالم الإسلامي آنذاك .

ج- رحلة ابن فضلان (مطلع القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي):-

هو احمد بن فضلان بن العباس بن راشد ، كان مولى الخليفة العباسي المقتدر ، والقائد محمد بن سليمان[3] ، الذي افلح في هزم الدولة الطولونية وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة سنة 292هـ/905م[4] .

وكان لأبن فضلان علم واسع بجغرافية حوض الفولغا وسكانه من قبائل البلغار والروس نتيجة رحلته إلى هناك[5] .

تمت هذه الرحلة في عصر الخليفة المقتدر **(295-320هـ/908-932م)** سنة 309هـ/922م ، وعندما تولى المقتدر الخلافة سنة 295هـ/320م كان عمره آنذاك ثلاث عشرة سنة ، واتصف المقتدر بأنه كان "**سمحاً كريماً كثير الاتفاق ... وسعة الإدارات والمعاش ، وكثرة الخلع والصلات ... وكانت خزانة الدولة في وقته مترعة بالجواهر النفيسة**"[6] .

---

(1) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص 164 .

(2) المصدر نفسه، ص 164 .

(3) ابن فضلان ، احمد بن فضلان بن العباس بن راشد ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، ط2 ، (دمشق-1959) ، ص67-68 ؛ حسن ، الرحالة المسلمون ، ص 26 .

(4) حميدة ، عبد الرحمن ، إعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ، (دمشق-1969) ص161 .

(5) حسن ، صبري محمد ، الجغرافيين العرب ، مطبعة القضاء ، (العراق-1958) ، ج1 ، ص35 .

(6) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص 192 .

وحدث في سنة 309هـ/921م أن أرسل ملك الصقالبة **(البلغار)** إلى الخليفة المقتدر يطلب منه أن يرسل له من يفقهه في الدين ويعرفه بشرائع الإسلام ، ويبني له مسجداً ، وينصب له حصناً يتحصن فيه من أعدائه[1] .

وقد رحب الخليفة بهذه الفكرة ، وأرسل بعثة إلى ملك الصقالبة وكان رئيسها احمد بن فضلان[2] .

رحل الوفد من بغداد سنة 309هـ وظل يصعد شرقاً وشمالاً ماراً بمدن كثيرة ثم أوغل في البراري والبوادي حتى وصل إلى الفولغا عند ملك الصقالبة[3] ، واستغرقت الرحلة في الذهاب احد عشر شهراً[4] .

وبسط لنا ابن فضلان أمر أعداء الصقالبة ، فقال إنهم ملوك الخزر ، وهم من اليهود ، وكانوا يعتدون على قومه ، ويفرضون عليهم الضرائب ، عن كل بيت جلد سمور ، وابن ملك الخزر يخطب من يريد من بنات الصقالبة ويتزوجها غصباً ، والخزري يهودي ، وابنة الصقلبي مسلمة[5] .

ورأى ابن فضلان أن مملكة الصقالبة واسعة ، وأموالها جمة ، وخراجها كثير ، فسأل الملك عن سبب استنجاده بخليفة المسلمين فأجاب الملك بأنه يتبرك بأموال المسلمين ويعتز بدولتهم[6] .

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن سمعة بغداد عاصمة الدولة العربية الإسلامية كانت عظيمة ، يتهافت الملوك والأمراء عليها ليعقدوا معها الصلات والمحالفات ، حتى إن الصقالبة وهم من سكان أوربا خطبوا ودها وتقربوا إليها .

---

(1) ابن فضلان ، رسالة ، ص 68 ؛ الشهابي ، مصطفى ، الجغرافيون العرب ، دار المعارف، (مصر–1962) ، ص43 .

(2) ابن فضلان ، رسالة ، ص 67 .

(3) مجموعة من أدباء الأقطار العربية ، الرحلات ، دار المعارف ، (مصر–1956) ، ص49 .

(4) ابن فضلان ، رسالة ، ص70 .

(5) المصدر نفسه ، ص171 .

(6) المصدر نفسه ، ص172 .

ومن يريد التعرف على حال الخلافة وهيبتها وسمعتها في الخارج ، ما عليه إلا مواجهة أحداث سنة 305هـ/917م أي قبل أربع سنوات من ذهاب الوفد إلى بلاد البلغار ، ففي تلك السنة ورد رسول الإمبراطور البيزنطي إلى بغداد من اجل إقامة الفداء بين الدولتين ، وجاء بصدد ذلك ما يأتي : "**ودخلت سنة خمس وثلاث مئة ، وفيها ورد رسولان لملك الروم إلى مدينة السلام ، على طريق الفرات بهدايا عظيمة ، والطاف كثيرة يلتمسان الهدنة ... والتمسا الوصول إلى المقتدر بالله ليبلغاه الرسالة التي معهما ، فعلما إن ذلك متعذر وصعب ، ولا يجوز إلا بعد لقاء وزيره ومخاطبته**"[1] .

وبعد أن تم لهما أمر لقاء الوزير في يوم حدد لهما "**دخل عليه الرسولان فشاهدا في طريقهما من الجيش وكثرة الجمع ما هالهما**"[2] .

فرسم الرواق والرجال وقد غصت بهم الدار ، وكذلك مجلس الوزير ، وذكر إن معهما المترجم يصف ويشرح لهما ، فلما جاء يوم المقابلة ، اصطف الجند بسلاحهم الكامل وملابسهم الحسنة[3] .

وبعد أن دخلا على الخليفة المقتدر "**الذي كان يجلس على سرير ويحيط به الأولياء واقفين على مراتبهم ، فلما دخلا عليه قبلا الأرض ووقفا ، وكان الحاجب قد استوقفهما ... فأديا الرسالة التي أجابهم عليها الوزير**"[4] وبعدها انتهت المقابلة .

وهكذا كان حال بغداد والخلافة والوزراء والجند والمراسيم قبل أربع سنوات من خروج ابن فضلان ، وهكذا كانت حالة البلد الذي خرج منه في حضارته وعمرانه وزيه ، لذا كانت سمعة بغداد في الخارج طيبة ، وان الملوك والأمراء يطلبون ودها والتقرب

---

(1) مسكوية ، أبو علي احمد بن محمد ، تجارب الأمم ، تصحيح هـ . ف آمدروز ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ، (مصر – 1914) ، ج5 ، ص53 .

(2) المصدر نفسه ، 54/5 .

(3) المصدر نفسه ، 54/5 .

(4) المصدر نفسه ، 55/5 .

إليها ، وهذا ما لمسناه من بلغار الفولغا وهم من سكان شرقي أوربا قد طلبوا عون الخلافة ومساعدتها[1] .

وبالرغم من فشل البعثة دبلوماسياً ، إلا أنها رحلة مهمة وثمينة أصبحت مصدراً مهماً عن الحياة الاجتماعية لتلك الأصقاع التي زارها[2] . وهذا من صلب موضوعنا وما نصبو إليه في آخر المطاف وهو التعرف على أحوال تلك البلاد من حياة اجتماعية وعادات وتقاليد .

د- رحلة أبي حامد الغرناطي :-

يعد الغرناطي اشهر جغرافي اندلسي ، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي ، ولد في غرناطة سنة 473هـ/1080م[3] .

قصد بغداد سنة 516هـ/1123م ورأى أن تكون محطته التي ينطلق منها إلى شرقي أوربا ، نظراً لما تمثله من أهمية دينية وحضارية في نفوس المسلمين آنذاك خاصة القاصين منهم ، وكانت إقامته في بغداد أربع سنوات[4] .

وكانت رحلته إلى أفريقيا الشمالية وشرقي أوربا وبلاد الشام والعراق وزار صقلية ، ومنها توجه إلى مصر ، ثم غادرها إلى ناحية بحر الخزر ، ووصل إلى ضفاف الفولغا ، ثم طاف ببلاد الخزر والبلغار ، وزار عاصمة خوارزم[5] .

---

(1) ابن فضلان ، رسالة ، ص21 .

(2) صفوت ، نجدت فتحي ، "أول دبلوماسي عربي في روسيا" ، مجلة آفاق عربية ، العدد الثالث ، السنة الثانية ، (بغداد-1976) ، ص15-23 .

(3) احمد ، نفيس ، جهود المسلمين في الجغرافية ، ترجمة فتحي عثمان ، مراجعة علي ادهم ، دار القلم ، ص76 .

(4) العبادي ، فاضل كاظم صادق ، "العلاقات التجارية والثقافية العربية الإسلامية بشرق أوربا ((الخزر ، البلغار ، الروس)) خلال العصور العباسية" ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، (جامعة بغداد – 1991) ، ص125 .

(5) مؤنس، حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، معهد الدراسات الإسلامية ، (مدريد-1967) ، ص314 .

ويرى كراتشوفسكي إن كتابات الغرناطي عن حوض الفولغا وعن شعوب القوقاز تمتلك أهمية كبرى ، ولا سيما حديثه عن تجارة العظام(*) بين سكان بلغار الفولغا وبلاد خوارزم وخراسان[1] .

توجه الغرناطي سنة 524هـ/1130م إلى شرقي أوربا فوصل سنة 525هـ/1131م إلى مدينة سقسين الخزرية ، ووصف لنا الوجود الإسلامي هناك ، وكيف كان دوره وهو يعلم الناس تعاليم الشريعة الإسلامية ، واستقر أبو حامد هناك ، واتخذ مسكناً وتزوج وأنجب بنين وبنات[2] .

وبقي في بلاد الخزر ثلاث سنوات ، وربما يرجع استقراره هناك إلى دوافع قد تكون ثقافية ، لأنه بعد أن تلمس الواقع الحيوي للإسلام هناك ، ادرك أن عليه البقاء والاستقرار ، حيث انه وجد مناخاً ملائماً ، لكونه رجلاً مسلما قبل كل شيء ، ولرغبته في أن يعمل على تثقيف الناس هناك بمبادئ الإسلام وقيمته[3] .

وبعد ذلك ذهب أبو حامد إلى البلغار والتقى بحاكمها ووصفه بأنه كان رجلاً خيراً متواضعاً[4] .

ومما جاء في كتابات الغرناطي عن دخول الإسلام للبلغار ، وذلك عن طريق مسلم يشتغل بالطب قصد بلاد البلغار ، وصادف إن ملكها وزوجه مريضين مرضاً

*** تجارة العظام : وهي تجارة كانت سائدة بين سكان بلغار الفولغا وبلاد خوارزم وخراسان ، حيث أن هذه العظام توجد في ارض البلغار ويعتقد أنها من عظام قوم عاد ، وهي عظام كبيرة جداً ، السن الواحد فيها عرضه شبران وطوله أربعة أشبار ، ومن رأسه إلى منكبه خمسة أبواع ورأسه مثل القبة العظيمة ، بالإضافة إلى هذه العظام هناك أنياب الفيلة وهي بيض كالثلج ثقيلة كالرصاص ، وتقطع هذه العظام وتحمل إلى خوارزم وخراسان وتتخذ منها الأمشاط والحقاق وغير ذلك كما يتخذ من العاج إلا انه أقوى من العاج ولا ينكسر ، والتجار يحملون هذه العظام إلى تلك المناطق ويأخذون أثمانها جلود السمور ولهم في ذلك ربح كثير . ينظر : أبو حامد الغرناطي ، الرحلة ، ص 133 .**

(1) تاريخ الأدب الجغرافي ، 297/1 .

(2) أبو حامد الغرناطي ، الرحلة ، ص 130 ؛ مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص 313 .

(3) الكربولي ، العلاقات التجارية والثقافية ، ص 126 .

(4) أبو حامد الغرناطي ، الرحلة ، ص 133 .

مستعصياً ، فعرض الطبيب عليهما الإسلام إن هو شفاهما ، فعالجهما ودخلا الإسلام على اثر ذلك[1] .

اعتمد الغرناطي على التجارة في وسيلة عيشه ، ولم تكن الدخل الوحيد له ولأسرته ، وإنما اهتم أيضاً بأنواع المتاجر والأسعار[2] . وبهذا يكون عن طريق التجارة قد توفرت له فرصة سانحة للتعريف بمبادئ الإسلام ومحاولة نشرها هناك.

انتقل أبو حامد سنة 545هـ /1150م إلى الباشغرد ، وتحدث عن الإسلام هناك ، وكيف أن المسلمين يخفون إسلامهم خوفاً من السلطة ، وكان له أيظاً دور كبير في تعليم المسلمين هناك فرائض الصلاة وسائر العبادات . [3] وبهذا يكون للغرناطي دور كبير في نشر الإسلام في أوربا .

هـ- رحلة الإدريسي:-

هو محمد بن محمد بن الشريف الإدريسي صاحب كتاب "**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** " من أعلام الجغرافيين المسلمين الذين كان للرحلات شأن عظيم في آثارهم العلمية [4] .

ولد في اشبيلية ، وتلقى علومه في قرطبة ، ورحل في قارة أوربا ، فوصل إلى سواحل فرنسا وإنكلترا ، ورحل كثيراً في أسيا الصغرى وأقام أخيراً في صقلية مع حاشية ملكها روجر الثاني [5].

حيث إن روجر الثاني استدعى الإدريسي عندما سمع به ولبى دعوته وكان هذا الملك محبا للعلم راغباً في نشره ، حريصا على جمع العلماء حوله والعطف عليهم[6] ، وبلغ

---

(1) أبو حامد الغرناطي ، الرحلة ، 117 ؛ الشهابي ، الجغرافيون العرب ، ص 68 .

(2) مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص 317 .

(3) المصدر نفسه ، ص381-320 .

(4) حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص64.

(5) الجوهري ، الكشوف الجغرافية ، ص91؛ عز الدين ، نجلاء ، العالم العربي ، ترجمة محمد عوض إبراهيم وآخرين ، ط2 ، دار إحياء الكتب العربية ، (القاهره-1962) ، ص70

(1) الشهابي ، الجغرافيون العرب ، ص 60 ؛ علي ، محمد كرد ، غرائب الغرب ، ط2 ، المطبعة الرحمانية ، (مصر – 1923) ، ص203 .

روجر من إكرامه للإدريسي انه كلما دخل عليه هرع لاستقباله عند الباب ، ثم يجلسه إلى جانبه ، حتى إذا ما تمت المحاضرات ، هم بالخروج شيعه الملك بنفسه إلى عتبة القصر [1] .

والإدريسي يمثل مدرسة جغرافية خاصة ، سميت بالمدرسة العربية النورمانية ، فقد كان بلاط روجر الثاني ملتقى الحضارتين وموئلاً للحرية العلمية ، والخرائط التي رسمها الإدريسي كانت ذات اثر كبير في تصوير الدنيا للأوربيين مدة طويلة بعد عصره[2] .

واشتهر الإدريسي بهذا اللقب نسبة إلى الشرفاء الادارسة العلويين ، الذين تنسب أسرته إليهم ، والذين طالبوا بالخلافة في مطلع القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، لذلك اشتهر بالإدريسي لأنه يمت بصلة النسب إلى آل البيت ، ويعود اصل عائلته إلى إدريس الأول ، مؤسس الأسرة ، الذي هرب من المشرق وأسس إمارة مستقلة في منطقة الريف والتي عرفت بإمارة الادارسة عام 172هـ/789م[3]

ومن الأقوال الشائعة إن الإدريسي ابن إدريس العالي سابع الخلفاء من بيت بني حمود ، وهو خطأ واضح لان إدريس العالي توفي سنة 444هـ/1052م[4] ، فلا يمكن أن يولد له ولد سنة 493هـ/1100م .

وسبب تأليف الإدريسي للكتاب كان بناءً على طلب الملك روجر الذي أراد أن يعرف كيفية بلاده ويعلم أشكالها وحدودها بعد ما اتسع سلطانه[5] .

و- رحلة أسامة بن منقذ :-

---

(2) سركيس ، يوسف الياس ، معجم المطبوعات العربية والمعربة ، مطبعة سركيس ، (مصر-1928) ص415 .

(3) زيادة ، نقولا ، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى ، ط1 ، 1943 ، ص 60 .

(4) ابن خلدون ، تاريخ ، 6/216-219 ؛ حميدة ، إعلام الجغرافيين ، ص303 .

(5) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 3/216-218 .

(6) سوسة ، احمد ، الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية ، مكتب صبري ، (العراق – 1974) ق1 ، ص283 ؛ علي ، غرائب الغرب ، ص 203 .

مجد الدين أبو مظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الشيرزي[1] .

عاش أسامة شهماً فارساً ، وزها مجاهداً شجاعاً ، ولمع أديباً وشاعراً ، وتلهى صياداً ، وقضى الكثير من سني حياته جواباً[2] .

لم يكن أسامة رحالة بالمعنى الفني للكلمة ، بل كان بطلاً من أبطال الحروب الصليبية ، تنقل في المعارك بين مصر وسوريا وبغداد ، ودون مشاهداته على شكل مذكرات تضمنها كتابة **(الاعتبار)** [3] .

شب أسامة وترعرع في مدينة دمشق ، بعدها انتقل إلى مصر ، ثم عاد إلى دمشق ، بعد خروجه من السجن في حصن كيفا في الموصل ، حيث إن صلاح الدين الأيوبي هو الذي أخرجه من السجن ودعاه إلى دمشق ، وذلك بمساعي وتأثير ابن أخ أسامة مرهف ، الذي أسدى خدمات جليلة لصلاح الدين الأيوبي ، فقد ذهب عام 586هـ/1190م إلى بلاط الموحدين بمراكش لاستخدام أسطولهم ضد الصليبيين[4] .

توفي أسامة في دمشق ليلة الثلاثاء ، الثالث والعشرين من رمضان عام 584هـ/1188م في حماه وقد بلغ من العمر ستاً وتسعين سنة[5] .

وكان لإسامة بن منقذ إضافة إلى كتاب الاعتبار ، أربعة ألاف مجلد من الكتب الفاخرة ، والتي نهبت كلها في أثناء وقوعه أسيراً في يد الصليبيين هو

---

(1) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، 107/6 ؛ حسن ، الجغرافيون العرب ، ص 53 .

(2) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، 107/6 ؛ زيادة ، رواد الشرق العربي ، ص 72 ؛ حميدة ، إعلام الجغرافيين العرب ، ص 293 .

(3) أبو سعد ، أدب الرحلات ، ص 133 ؛ زيادة ، رواد الشرق العربي ، ص 73 .

(4) أسامة بن منقذ ، مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد ، الاعتبار ، حرره فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، (الولايات المتحدة – 1930) ص208 ؛ زيادة، رواد الشرق العربي ، ص 73 .

(5) الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، ط2 ، دار الكتاب اللبناني ، 1998 ، ج1 ، ص48 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، 107/6 .

ورفاقه ، وفقدوا ما كانوا يحملونه من المال والمتاع ، لكنه لم يأسف على ذلك كله أسفه على ضياع كتبه . وقال في ذلك إن ذهابها كان حزازة في قلبه ما عاش[1] .

وتكمن أهمية كتابه الاعتبار في انه قدم فيه صورة واضحة عن حياة الصليبيين في البلاد العربية ، لكونه كان بطلاً من أبطال الحروب الصليبية ، ووصف مشاهداته لهم في دياره في أثناء الحرب والسلم ، وعلى الرغم من أن رحلاته كانت ضيقة الافق ، إلا أن لها شأناً عظيماً في وصف الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي هي محور دراستنا .

التفاعل الحضاري بين العرب وأوربا :-

هناك عوامل مجتمعة دفعت أوربا نحو الاغتراف من نبع الحضارة العربية الإسلامية التي بهرتها ، إذ أن هذه الحضارة قد فرضت نفسها على أوربا ، وذلك لما

(1) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص 34–35 ، حسن ، الرحالة المسلمون ، ص 100 .

فيها من عناصر القوة الذاتية ولأصالتها وجديتها وبنائها القويم ، فضلاً عن هدفها السامي الإنساني لتسيير الحياة للبشرية مادياً وروحياً .

دأب العرب في جميع فتوحاتهم في أوربا منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي على إتباع سياسة التسامح والبناء والإصلاح ، ومن الشواهد الحية الدالة على هذه السياسة هي قيام علاقات المصاهرة بين العرب الفاتحين وأهل البلاد المفتوحة ، وكان القليل من هذه المصاهرات ذات أهداف سياسية ، ولم تكن على مستوى أفراد الشعب فقط وإنما كانت مألوفة على مستوى الحكام ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون الفاتحون منذ الأيام الأولى للفتح في أوربا ، ومن أوائل الأمثلة على هذه المصاهرات هو زواج والي الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير من ايلة **(أم عاصم)** أرملة لوذريق آخر ملوك القوط في اسبانيا[1] .

وتزوج عدد غير قليل من حكام الأندلس بنساء مسيحيات من اسبانيا الشمالية **(المسيحية)** نفسها ، فالحاكم الثاني المستنصر بالله تزوج بامرأة بشكسية **(أي امرأة من بلاد نافار في الشمال الاسباني التي كانت عاصمتها بنبلونة)** وكانت زوجته اسمها **(صبح)** [2] ، وهي أم هشام المؤيد بن الحكم المستنصر ووريثه وهي التي ساعدت المنصور محمد بن أبي عامر على تمكنه من السلطة في الأندلس عند وفاة زوجها وتولي ابنها هشام الخلافة وكان صغيراً بالسن لم يتجاوز التاسعة من عمره[3] .

وتزوج المنصور هذا من تريسا ابنة برمودو الثاني ملك ليون[4] ، كما تزوج أيضاً من ابنة شانجة الثاني بن غرسية ملك نافار والتي تسمى باسم **(عبدة)** [1] ،

---

(1) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 23/2 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 263/1 ؛ ارنولد ، توماس ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، ط3 ، مكتبة النهضة المصرية ، (مصر–1970) ص160 ؛ الشيال ، جمال الدين ، التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوربي في عصر النهضة ، دار الثقافة ، (بيروت–1969) ، ص17–18 .

(2) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 253/2 ؛ عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 454/2 ، 469 .

(1) ابن سعيد ، المغرب ، 194/1 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 225/2 ؛ عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 471/2 ؛ سالم ، تاريخ المسلمين ، ص 323–326 .

(2) ابن خلدون ، تاريخ ، 389/4 ؛ عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 530/2 .

والتي أنجبت له عبد الرحمن الذي تولى حكم الأندلس بعد أخيه عبد الملك المظفر بن المنصور – وكان عبد الرحمن يسمى شنجول – مصغراً لأسم جده شانجة والذي حضر لزيارة المنصور في قرطبة سنة 382هـ/992م فاستقبله المنصور أعظم استقبال[2] .

ومن النماذج الطريفة للمصاهرات ما ذكر أن الخليفة الاندلسي عبد الرحمن الناصر كان حفيد سيدة نافارية ، وكان هو ابن جارية اسبانية تسميها الرواية الاندلسية **(مزنة)** [3] .

وكان الحكام الأسبان أنفسهم يشجعون هذه المصاهرات ومن هؤلاء الحكام المسيحي مورجاتو الذي استقل في جليقية وشجع بحماس زواج الفتيات المسيحيات من المسلمين ، وكان هذا الحاكم نفسه ابناً لألفونسو الأول من أم عربية ، ولكن دعوته لم تلاق النجاح المطلوب بسبب بغض النصارى المتعصبين ورجال الدين له[4] .

وقامت علاقات مصاهرة قوية بين بعض الأسر المتنفذة في منطقة الثغر الأعلى مثل بني قسي المولدين[*] ، وبين حكام نافار في الشمال[5] .

---

(3) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، 272/1 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، 38/3 .

(4) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، 272/1 ؛ عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 570/2 .

(5) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 156/2 ؛ الحجي ، عبد الرحمن علي ، الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ط1 ، دار الإرشاد ، (بيروت–1969) ص24 .

(6) عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 219/1 ؛ الحجي ، اندلسيات ، 81/2 .

*** المولدون : وهم الجيل الذي ظهر من عملية المصاهرة بين المسلمين الفاتحين ونساء سكان البلاد الأصليين فلذا سموا (بالمولدين) . ينظر : الخربوطلي ، علي حسني ، العرب والحضارة ، مكتبة الانجلو المصرية ، (القاهرة – 1966) ص299 ؛ العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 111 ؛ أمين ، ظهر الإسلام ، 2/3 .**

(1) ابن حزم ، أبو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الاندلسي ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، (مصر – 1962) ، ص502–503 ؛ عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 1/ 257 .

ويبدو أن هذه الأسر المولدة أرادت تقوية نفوذها بالزواج ، فضلاً عن عامل الجوار والقرب الذي يربط الطرفين ، وكانت علاقات المصاهرة هذه من القوة بحيث كان بنو قسي يقفون أحياناً مع أصهارهم النافاريين بوجه حكومة قرطبة ، أو الحكام المسيحيين الآخرين[1] .

ومن ابرز أفراد هذه الأسرة ، موسى بن موسى بن فرتون بن قسي **(موسى القسوي)** وكان هو أول عاصي ضد الأمير عبد الرحمن الثاني[2] ، ولعله أول من فعل ذلك من الأسرة[3] ، فكان عصيانه سنة 227هـ/842م وتحالف مع صهره غرسية[**] انيجس ملك نافار ضد قرطبة[4] .

وعاد موسى إلى الخلاف مرة أخرى عام 235هـ/850م فعاونه وأيده غرسية انيجس اخو موسى لأمه ، كما كان لموسى أحياناً علاقات ودية متقطعة مع اردونيو الأول ملك ليون ، كما كان لأبنه من بعده لب علاقات تحالف مع اردونيو الأول ضد المسلمين[5] .

ومن المصاهرات المهمة التي حدثت في هذا العهد زواج الأمير عبد الله بن محمد من أحدى الأميرات النافاريات وهي ونقة ابنة فرتون ابن غرسية المعروف بالانقر الذي أسره الأمير محمد بن عبد الرحمن وسجنه في قرطبة مدة عشرين سنة[6] ، وكانت ونقة هذه قد تزوجت قبل ذلك من أمير نافاري وهو أزنار بن شانجة وأنجبت منه ابنة وهي طوطة **(Toda)** والتي أصبحت فيما بعد ملكة نافار ، ثم كان الزواج الثاني لونقة من الأمير عبد الله جد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فأنجبت ونقا للأمير عبد

---

(2) الحجي ، عبد الرحمن علي ، "العلاقات السياسية بين ثوار الأندلس وأسبانيا المسيحية في الفترة الأموية" ، مجلة الأبحاث ، الجزء الأول ، السنة 18 ، الجامعة الأمريكية (بيروت–1965) ص45–57

(3) ابن سعيد ، المغرب ، 46/1–49 .

(4) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص 502 .

**** غرسية انيجس : كان متزوج من ابنة موسى بن موسى الذي كان متزوجاً هو نفسه من ابنة غرسية . ينظر : ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص 502 .**

(5) عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 256/1 .

(1) عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 295/1 .

(2) ابن عذاري ، البيان المغرب ، 97/2 ؛ الحجي ، اندلسيات ، 84/1 .

الله محمداً أبا عبد الرحمن الناصر ، فيكون محمد **(أبو الناصر)** أخاً لطوطة ملكة نافار من الأم ، وتكون طوطة هي عمة عبد الرحمن الناصر بن محمد عن طريق الأمومة ، والتي وفدت إليه بسفارة سنة 347هـ/م958 ساعية إلى عقد معاهدة سلم وصداقة مع قرطبة[1] ، ومناشدة الناصر الاعتراف بابنها ملكاً تحت وصايتها وراجية منه مساعدة حفيدها في استرداد عرشه[2] ، فاستقبل الناصر عمته الملكة طوطة والوفد المرافق لها[3] بحفاوة وأبهة بالغتين في قاعة استقبال السفراء في قصر الخلافة بمدينة الزهراء واستجاب لطلباتها[4] .

وتدل هذه المصاهرات على مدى العلاقات المتشابكة التي قامت بين المسلمين في اسبانيا وجيرانهم نصارى الشمال ، مما كان له الأثر الكبير في الاحتكاك بين الشعبيين واختلاطهم ، وانتقال مظاهر الحضارة فيما بينهم ومن ثم انتقالها إلى أوربا ، فضلاً عن ذلك تزايد عدد المسلمين في أوربا ، إذ أن هذه المصاهرات أنتجت جيل المولدين وأصبح بعض من هؤلاء السادة الأغنياء ، كما بقيت انسال العرب عربية تحمل أسماء أسلافهم الذكور[5] ، واحتفظ الكثير من هؤلاء المولدين بأسمائهم القديمة مثل بنو انجلين وبنو شيرقة وبنو لنثق ، وبنو مردنيش ، وبنو غرسية وغيرهم[6] .

وكانت هذه المصاهرات من العوامل المهمة التي دفعت أوربا على الإقبال على الحضارة الإسلامية ، ومن العوامل المهمة الأخرى هي سياسة التسامح الإسلامي ، إذ أن العرب قد تركوا لرعاياهم في جميع البلاد التي فتحوها الحرية الدينية ، وابقوا على دور عبادتهم السماوية ، لذلك فقد اختلط هؤلاء بالمسلمين اختلاطاً كبيراً ، وظهر من

---

(3) ابن خلدون ، تاريخ ، 310/4 ؛ المقري ، نفح الطيب ، 342/1 .

(4) ابن خلدون ، تاريخ ، 310/4 .

(5) المقري ، نفح الطيب ، 342/1 ؛ عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 417/2 .

(6) عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، 540/2 .

(1) ارنولد ، توماس ، تراث الإسلام ، ترجمة جرجيس فتح الله احمد ، ط2 ، دار الطليعة (بيروت–1972) ص24 .

(2) ابن حيان ، أبو مروان بن حيان بن خلف ، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، نشر شلورم انطو نية ، (باريس – 1937) ص70–74 ؛ سالم ، تاريخ المسلمين ، ص 128 .

بينهم من عرفوا بالمستعربين ، وهم الذين بقوا على دينهم من النصارى ولكنهم تثقفوا بالثقافة العربية واقبلوا عليها إقبالاً كبيراً وتزيوا بالزى العربي الإسلامي وعاشوا على حد كبير على نمط حضارة العرب ، وشغفوا بالعربية فاستعملوها حتى أهملوا لغتهم الأصلية ومهروا فيها ونظموا الكثير من الشعر فيها[1] ، وهذا مما أدى إلى غضب الراهب النصراني **(الفارو القرطبي)** الذي كان من اشهر رجال المقاومة للمسلمين وممن أثاروا حركة الاستشهاد[*] ، فكتب وثيقة سنة 240هـ/854م يصف فيها الذعر الذي أصاب بعض الغيارى من النصرانية بسبب ما لقيت من إهمال أبنائها لها ، فبين كيف أن شباب النصارى يتقنون اللغة العربية ومؤلفاتها ويدرسونها في حين أنهم يجهلون آداب الكنيسة ولغتهم اللاتينية بل أنهم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر بعض العرب أنفسهم فناً وجمالاً [2].

وأخذت أعداد هؤلاء المستعربين بالتناقص مع مرور الوقت لاعتناق الكثير منهم فيما بعد الإسلام فسموا بالاسالمة ، وكان لهؤلاء المستعربين دور كبير ومهم في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى شمال أسبانيا النصرانية ومنها إلى أوربا بحكم معرفتهم

---

(3) العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 175 ؛ المجمل ، ص 98 ، الخربوطلي ، العرب والحضارة ، ص 299–300 .

*** حركة الاستشهاد : وهي الحركة التي قام بها المستعربون في اسبانيا الإسلامية في القرن 3هـ/9م خلال عصر الفتن أواخر عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (206–238هـ/821–852م) وأوائل عهد ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن (238–273هـ/852–886م) قام هؤلاء المستعربون بالتعرض للعقيدة الإسلامية والطعن فيها تحت تأثير المتعصبين من رجال الدين النصارى أمثال (الفارو القرطبي) ويعرضون أنفسهم لعقاب السلطات الإسلامية ، طالبين الاستشهاد على ما فعل الشهداء الأول الذين استشهدوا في سبيل العقيدة ، وقد عاقبتهم السلطات الإسلامية بالجلد والإعدام بحسب الجرم ، ولكن هذه الحركة لم يرض عنها كبار رجال الدين واستنكروها ، ولم تهدأ هذه الحركة إلا بعد أن صدر قرار من مجمع ديني من كبار النصرانية يوضح خطأ هذا المسلك . ينظر : طرخان ، إبراهيم ،= "أوربا والحضارة الإسلامية" مجلة كلية الآداب ، المجلد الثاني ، السنة الثانية ، (جامعة الرياض – 1971–1972) ، ص7–36 .**

(1) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص 485–486 .

اللغة العربية إلى جانب لغتهم ، وبسبب هجراتهم المستمرة فكانت النتيجة أن نشرت الثقافة والعادات الإسلامية في تلك الجهات[1]

وبلغت درجة التسامح الإسلامي أن ترك العرب أهل الذمة يمارسون شعائرهم الدينية ، وقوانينهم ، ومثال ذلك ما حدث في صقلية حيث ترك العرب لهم حرياتهم الدينية وممارسة عاداتهم وتقاليدهم ، واكتفوا بجباية قليلة دون ما كانت عليه زمن السيادة البيزنطية ، واعفوا الرهبان والنساء والأطفال من الجزية ، وتركوهم يتعبدون في كنائسهم الخاصة[2] ، بل إن المسلمين سمحوا لهم ببناء كنائس جديدة وما يريدون من الأديرة[3] .

وحتى في جنوبي ايطاليا نجد مبدأ التسامح الإسلامي قائماً فيها على أمد السيادة الإسلامية فيها ، فقد عرف عن بعض الحكام قيامهم بتشجيع الحجاج النصارى ومساعدتهم على الرحلة إلى فلسطين ، وتيسير حصولهم على السفن وتسهيل مرورهم في البلاد الإسلامية التي يتجاوزونها[4] .

ولما كان الملوك النورمانديون وأحلافهم على العرش الصقلي يحكمون إلى جانب صقلية جنوب ايطاليا أيضاً ، فإنهم كانوا بمثابة الجسر الذي نقلت عليه مختلف عناصر الثقافة العربية الإسلامية إلى شبه الجزيرة الإيطالية ووسط أوربا ، ولم يكد ينتصف القرن العاشر الميلادي حتى كانت آثار الحضارة العربية واضحة للعيان شمال جبال الألب[5] .

---

(2) العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 175 .

(3) لـودر ، دوروثـي ، اسـبانيا شـعبها وأرضـها ، ترجمـة طـارق فـودة ، مكتبـة النهضـة المصـرية ، (القـاهرة–1965) ص51 ؛ مـؤنس ، فجـر الأنـدلس ، ص 446 ؛ معـروف ، نـاجي ، المـدخل فـي تـاريخ الحضارة العربية ، ط3 ، وزارة المعارف ، (بغداد – 1962) ص91 .

(4) لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة ، 107/1 ؛ الحجي ، اندلسيات ، 26/2 .

(1) لـويس، القـوى البحريـة ، ص 275 ؛ طرخـان ، المسـلمون فـي أوربـا ، ص 216 ، الخربـوطلي ، العـرب والحضارة ، ص 2–3 .

(2) حتي ، تاريخ العرب ، ص 699 .

ولعل من ابرز العوامل التي أدت إلى إقبال أوربا على الحضارة العربية حاجتهم إلى علوم العرب وثقافتهم ، إذ أن حضارة العرب وتراثهم قد بلغت ذروتها في الازدهار خلال القرنين الثالث والرابع الهجري / التاسع والعاشر الميلادي ، وخلال هذه الفترة بدأت أوربا تتطلع بصورة جدية وجارفة نحو التراث الإسلامي ، وبلغ الإقبال على الثقافة ذروته زمن الإمبراطور فرد ريك الثاني **(1211–1250م)** الذي عُدَّ في أوربا أعجوبة الدنيا نتيجة ثقافته العربية وتعدد مواهبه ونشاطه ، وانكبابه على نقل التراث العربي إلى اللغة اللاتينية ، وانشأ مركزاً للترجمة الذي أنجز نحو 300 كتاب نقلت من العربية إلى اللاتينية ، ووزعها على جامعات أوربا لنشر العلم وهي في مختلف العلوم في الفلسفة والطبيعيات والرياضيات والكيمياء والطب وغيرها[1] .

إذ أن أوربا كانت أمية وتزخر بالجهل والحرمان[2] ، بينما كانت الأندلس تحمل إمامة العلم وراية الثقافة في العالم ، فكانت أوربا تمر حقيقة بالعصور المظلمة لتلك الحقبة الطويلة من القرون ، وان بدأ اتصالها بالعالم الإسلامي قبل ذبك بمدة حيث بدأت تزيل ثوب الجهالة ، وبينما كان شارلمان ونبلاؤه يحاولون أن يتعلموا كيف يكتبون أسماءهم[3] .

فكانت مدارس العرب في اسبانيا هي مصادر العلوم ، وكان الطلاب الأوربيون يهرعون إليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضية وما وراء الطبيعة[4] ، فقامت أوربا بإرسال البعثات العلمية على قدم وساق إلى الأندلس الإسلامية لتلقي العلوم والفنون والصناعات في معاهدها الكبرى ، وذلك بنتيجة الدعايات التي انتشرت في قصور ومراكز معظم المقاطعات الأوربية[5] .

---

(3) العقيقي ، نجيب ، المستشرقون ، (بيروت–1937) ج1 ، ص110–111 .

(4) لوبون ، حضارة العرب ، ص566 ؛ هونكة ، زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة إبراهيم بيضون وكمال دسوقي ، ط3 ، المكتب التجاري ، (بيروت–1979) ص369–370 .

(1) هونكة ، شمس العرب ، ص 393 ؛ حتي ، تاريخ العرب ، ص 384 .

(2) هونكة ، شمس الله ، ص 131 .

(3) الحجي ، اندلسيات ، 81/2 .

وبذلك أصبحت اللغة العربية أكثر انتشاراً واستعمالاً لدى الأوربيين أنفسهم ولعل ما قاله **(الفرو القرطبي)** خير دليل على هذا الانتشار فيقول "**لا نكاد نجد بين ألاف واحد يستطيع أن يكتب لصديقه رسالة مقبولة باللغة اللاتينية ، ولا يحصى عدد من يعبرون عن أنفسهم بالعربية وينظمون الشعر العربي بأسلوب فني يفوق أسلوب العرب أنفسهم**"[1] .

وقد انتقلت العربية من اسبانيا إلى الأقطار الأوربية المجاورة كايطاليا مثلاً[2] ، حتى إن العربية قد خلفت الكثير من كلماتها في لغات أوربا وهناك كلمات وألفاظ عربية في اللغة الأسبانية والبرتغالية بعضها ما زال موجوداً إلى الوقت الحالي مثل كلمة طاحونة **Tahona** وفندق **Fonda** [3] .

وقد ترجم العديد من الآداب العربية إلى الأسبانية والفرنسية ، وقد لاحظ الباحثون أوجه التشابه بين القصص العربية الخيالية وبين بعض القصص التي عرفتها أوربا في العصور الوسطى مثل قصة فلورا والزهرة البيضاء ، ويقول لوبون إن العرب هم الذين ابتدعوا قصة الفروسية في الأدب[4] .

أما في مجال الفلسفة فإن أراء ابن رشد[*] قد لاقت الكثير من الاهتمام[5] ، وحظيت كتاباته باهتمام واضح من قبل المستشرقين وأغنيت بالبحث والملاحظة فهذا لوبون يعدّه "**ابعد الفلاسفة صيتاً وله أعظم تأثير في أوربا**"[6] .

---

(4) لويس ، العرب في التاريخ ، ص 175 .

(5) جب ، هاملتون ، تراث الإسلام ، (بيروت – 1952) ص106 – 107 .

(6) ارنولد ، تراث الإسلام ، ص 41–42 .

(1) لوبون ، حضارة العرب ، ص 414 ؛ الركابي ، جودت ، في الأدب الاندلسي ، (القاهرة – 1960) ص189–252 .

*** ابن رشد : وهو من شراع فلسفة أرسطو ومعروف للأوربيين باسم (Averrues) . ينظر : الدوميلي ، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ، ط1 ، دار العلم ، (بيروت – 1972) ص365.**

(2) الدوميلي ، العلم عند العرب ، ص 365 .

(3) حضارة العرب ، ص 445 ؛ ج.ج كولون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، دار النهضة العربية ، (بيروت – 1981) ص235 .

ويعطي الدوميلي لابن رشد أهمية بالغة عند المسلمين لأنه اشتهر بكتاب **(تهافت التهافت)** [1] ، وقد ترجمه الأوربيون إلى اللغة العبرية أولاً ثم إلى اللغة اللاتينية[2] .

أما في علم الرياضيات فيرجع الفضل إلى العرب في تقدم العلوم الرياضية فهم الذين نقلوا للعالم طريقة العد بالأرقام واليهم يرجع الفضل في تعليم استخدام الصفر وعرفتها عنهم أوربا في القرن الخامس الهجري / الثاني عشر الميلادي[3] ، كما يعود الفضل إلى العرب في تقدم علم الجبر ويقصد به استخدام المجهول من المعلوم[4] .

وعلى الرغم من ظهور كبار العلماء العرب في الرياضيات في المشرق الإسلامي مثل الخوارزمي وثابت بن قرة الحياني ، حظيت الأندلس بمجموعة اكبر من الرياضيين[5] .

وخلاصة القول إن المعارف العربية في الرياضيات قد انتقلت إلى الأندلس ومنها إلى أوربا فاستفاد الأوربيون منها فائدة عظيمة في هذا المضمار.

أما علم الفلك فان العرب كعادتهم لم يكونوا ناقلين للعلوم التي اقتبسوها ، بل أضافوا إليها فضلاً عن نقلهم كتب اليونان والهنود فأنهم أصلحوا المقاييس الفلكية القديمة وقاموا بدراسة الخسوفات والكسوفات[6] .

وقد ظهر في الأندلس فلكيون كان لهم تأثير واضح في أوربا وينسب إليهم اختراع بعض الآلات الفلكية[7] ، وانتقلت إلى أوربا عن طريق الأندلس مصطلحات

---

(4) الدوميلي ،، العلم عند العرب ، ص 371 .

(5) المصدر نفسه ، 371 .

(6) واط ، مونتكمري ، تأثير الإسلام على أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة عادل نجم عبو ، ط1 ، (العراق–1982) ص53 .

(7) ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد بن خلدون الحضرمي ، المقدمة ، ط4 ، دار إحياء التراث العربي ، (بيروت–د.ت) ص483 ؛ عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية ، ط1 ، مطبعة لجنة البيان العربي ، (القاهرة–1963) ، ص106 .

(1) الدوميلي ، العلم عند العرب ، ص 353–383 ؛ واط ، تأثير الإسلام ، ص 56–58 .

(2) ابن صاعد الاندلسي ، طبقات الأمم ، ص 29–30 ؛ واط ، تأثير الإسلام ، ص 56–58 .

(3) الدوميلي ، العلم عند العرب ، ص 383 .

فلكية عديدة لا تزال أسماؤها موجودة في اللغات الأوربية مثل الطائر وعلم الثور ، وساهموا في تقديم هذا العلم ونشره في أوربا وكان للمسلمين مراصد علمية في طليطلة وقرطبة[1] .

أما في مجال العلوم الاجتماعية الجغرافية والتاريخ ، فالذي يهمنا هو الإشارة إلى بعض العلماء الاندلسيين في حقلي الجغرافية والتاريخ والذين كان لهم تأثير مباشر في الحياة الأوربية في العصور الوسطى ، ولعل اشهر جغرافيي الأندلس هو الإدريسي صاحب كتاب **(نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)** والذي ترجم إلى اللاتينية ، بحيث تعلمت منه أوربا هذا العلم في العصور الوسطى وقدم الإدريسي كتابه هذا إلى روجر الثاني ملك صقلية[2] .

وبقيت خرائط الإدريسي عدة قرون الأساس الذي بقي عليه رسم الخرائط ، ولم يقتصر في رسمه على البلاد الإسلامية ، وإنما رسم أيضاً بلاد العالم ولا سيما أوربا[3] أوربا[3] .

أما بخصوص علم التاريخ فقد جعل العرب المسلمين التاريخ علماً قائماً بذاته له أصول ويعد ابن خلدون من ابرز من كتب في علم التاريخ وفلسفته[4] .

وكانت مكانة المؤرخين الاندلسيين عالية جداً لدى الأوربيين ، إلا أن المؤرخين الأوربيين قد استفادوا من مقدمة ابن خلدون وتاريخه واخذوا يؤلفون وفق المنهج العلمي[5] .

---

(4) لوبون ، حضارة العرب ، ص 456 ؛ عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص 112 .

(5) لوبون ، حضارة العرب ، ص 469 ؛ عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص 120 ، مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص 276 .

(1) لوبون ، حضارة العرب ، ص 469 ؛ مظهر ، جلال ، مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ط1 ، مكتبة الانجلو المصرية ، (القاهرة – 1960) ص170 ؛ الحجي ، الحضارة الإسلامية ، ص 44 .

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 9–10 ؛ مظهر ، مآثر العرب ، ص 164–165 .

(3) ابن حيان ، أبو مروان بن حيان القرطبي ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق حسين مؤنس ، (بيروت–1965) ص12 ؛ الحجي ، الحضارة الإسلامية ، ص 45 .

أما علم الطب فإنه يدل على نهضة العرب في العصور الوسطى ، وخلف المسلمون ثروة كبيرة في هذا الميدان وعرفوا الكثير من الأمراض كالجدري والحصبة واكتشفوا الدورة الدموية الصغرى ومن اشهرهم أبو القاسم خلف الزهراوي(*) وهو من أطباء الأندلس والذي اثر تأثيراً كبيراً في الطب الأوربي ، وفضله كبير في رفع شأن الجراحة ، وكتابه التصريف أول كتاب موضح بالرسوم في الجراحة وكان تأثيره في الجراحين الإيطاليين والفرنسيين كبيراً[1] .

وهناك الكثير من الأسماء اللامعة في الطب برعوا في كل أنواعه وفي الجراحة أيضاً ، وكانت مهنة الطب تمارس إلى جانب القضايا الأخرى أحياناً لذا نجد أسماء اشتهرت في الفلسفة والأدب لكنهم كانوا يحسبون أطباء أيضاً كأبن رشد مثلا[2] .

وأورد لنا أسامة بن منقذ قصة عن مستوى الطب الأوربي في العصور الوسطى أيام الحروب الصليبية ، تشير إلى جهلهم بالطب واعتبارهم المرض نوعاً من العقاب الإلهي لا يصح للإنسان معالجته أو العمل على البرء منه[3] .

إضافة إلى علم الطب كان هناك علم الصيدلة والذي يعد مكملاً له ، وقد برع المسلمون في تركيب عدد من الأدوية وألفوا في ذلك الكتب وتقدم هذا العلم على يد ابن البيطار[4] ، وأشار المقري إلى أن لأبن البيطار عدة مصنفات من الحشائش لم يسبقه

*** الزهراوي : أبو القاسم خلف بن عباس كان طبيبا فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي . ينظر : ابن أبي اصيبعة ، موفق الدين أبو العباس احمد ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق ، نزار رضا ، مكتبة الحياة ، (بيروت–د.ت) ، ص501 ؛ حتي ، تاريخ العرب ، ص 661 .**

(4) الجليلي ، محمود ، "تأثير الطب العربي في الطب الأوربي في القرون الوسطى والنهضة الأوربية" ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد 32 ، (بغداد–1981) ص186–210 .

(1) حتي ، تاريخ العرب ، ص 660 ؛ عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص 157 .

(2) عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص 146 و ينظر : أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص 132–134 ، هونكة ، شمس العرب ، ص 215–216 ؛ القاضي ، مختار ، اثر المدنية الإسلامية في الحضارة العربية ، (مصر–د.ت) ص165 .

(3) لوبون ، حضارة العرب ، ص 649 ، حتي ، تاريخ العرب ، ص 659 .

إليها احد[1] ، ولأبن البيطار الكثير من المصنفات في هذا المجال منها **(الجامع في الأدوية)** الذي يحتوي على الأدوية وما قام به المؤلف من اختبارات في تركيبها[2] .

وهكذا كان إقبال أوربا على الحضارة والتراث العربي في الوقت الذي كانت فيه تسرح وتمرح في دياجير الظلام في القرون الوسطى كانت العلوم والمعارف مزدهرة ومنتشرة في بلاد الإسلام ، وكان يندر أن يلقى المرء شاباً أو شابة في الإسلام بلغ سن الرشد إلا ويتقن القراءة والكتابة ، في حين أن أوربا كان قد سادها الجهل بدرجة لم يتمكن بعض عظمائها من إحصاء أسمائهم على الورق[3] .

والنتيجة النهائية إن الدلالة الواقعية لذلك هي الاعتراف الصريح بتفوق العرب وحاجة الغرب إليهم مما دفعهم إلى الإقبال على التراث العربي والعلوم والمعارف والثقافة والحضارة العربية ، كما أن الحصيلة النهائية الحتمية هي تعلم الغرب وتقدمه في مدارج الحضارة بفضل العرب .

---

(4) نفح الطيب ، 1/444-445 .

(5) حتي ، تاريخ العرب ، ص 660 ؛ عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص 165 .

(6) الفلاحي ، عبد المنعم ، مآثر العرب والإسلام في القرون الوسطى ، مطبعة أم الربيعين ، (العراق-د.ت) ص264 .